الفصل الحادي والعشرون

مغادرة البندقية . اتفاق بين البنادقة وأهل ميلان .
فرارا . البابا يوجين وبيزنطة .
انعقاد المجمع . الحكومة .

. . .

حينما غادرت البندقية للذهاب إلى الأقطار النصرانية الأخرى خلفت ورائى بها ما جئت به معى من بضائع الشرق ومن بينها العبيد وكذلك أموالى وكل ما اشتريته ، وتركت ذلك كله فى رعاية صديقى العزيز السيد «دومينيجوفنت» من تجار البندقية ، ولم أحمل معى المال غير ما قدّرته كافيا لسدّ احتياجاتى وغير صكوك التبادل النقدى على جماعة معينة من التجار فى مدينة «بروجس» بفلاندر ، ورحلت فى قارب ونمت ليلة رحيلى فى مكان اسمه « شيوجيا» قد بنى فى البحر شأنه شأن البندقية وهو خاضع لها ، وكان به بعض سفن محترقة كانت قد عطبت فى الوقعة التى جرت حين قدم الجنوية إلى هذه البقعة لمحاربة البنادقة .

فلما كان الصباح رحلنا حتى إذا قطعنا مسافة أربعة أو خمسة أميال دخلنا نهر «بو» أحد أنهار الدنيا العظمى ، أما الفرع الذى دخلت منه فكان واحدا من ثلاثة فروع ، والنهر كبير جدا حتى إنه حدث فى كثير من مرات الحرب التى كانت تنشب بين البنادقة وبين دوق ميلانو[١٢٦] أن أنزل كل من الفريقين فى النهر أساطيل كبيرة ، وبه من السفن أعجب ما تسنّى لى رؤيته منها ، إذ أنها

مراكب شراعية ضخمة مستوية القاع مما يذلل لها السير فى المياه الضحلة ، وعلى سطحها قلعة خشبية كبيرة ذات برج شاهق يضعون فيه ما تستلزمه مدفعيتهم من الذخائر الحربية كالقنابل والمدافع وما شاكلها ، ويقيم المجدفون فى القسم الأسفل حتى يكونوا بمنجاة من الهجوم عليهم ، ولا تسير هذه المراكب بالقلاع كما أنها لاتصنع للإبحار لأنها تكون سهلة الانقلاب ، ولكنهم يستخدمونها فى حروبهم العنيفة ، وقد حدث أثناء وجودى هناك أن أقلع البنادقة بأربعين سفينة منها لمحاربة دوق ميلانو قصد الاستيلاء على إحدى المدن فخرج اللمبارديون لصدهم ، ويقال إنه جرت بين الجانبين معركة عنيفة .

ويستعمل اللمبارديون نوعا صغيرا من القوارب يسمى « جلاباجو »(١٢٧) قد غطى كله بطبقة من المعدن حتى ليبدو وكأنه القبو ، ويصطنعه القوم لإشعال النيران فى سفن الآخرين على حين أنه ليس من الممكن إنزال الضرر بهم ، على أن ذلك لم يُعْجِز البنادقة فقد بعثوا رجلا غطس تحت الماء وسبح حتى بلغ سفن العدو وأعمل فيها ثقوبا بمثقاب كان معه ، ففقد اللمبارديون ثلاثة من من مراكبهم قبل أن يقفوا على ماحدث ، على حين خسر البنادقة أربع سفن التهمتها النيران ، واستمرت المعركة طويلا ثم انتهت بهزيمة البنادقة وفقدانهم ست عشرة سفينة من سفنهم ، فلما استردوا ما استطاعوا استرداده انحدروا مع النهر وعادوا إلى المدينة ، وعلى هذا المنوال تنشب الحرب دائما بين البنادقة واللمبارديين .

* * *

تابعت رحلتى فى نهر البو حتى بلغت مكانا فى الداخل يسمى «فرانكولينو » وهو تابع لمركيز فرارا ، ومن ثم ذهبت إلى «فرارا » حيث

كان هناك إذ ذاك البابا وإمبراطور القسطنطينية فى حشد كثيف من الناس الذين اجتمعوا لمشاهدة الجمع الذى عقد قصد التوحيد بين الكنيسة وبين الإغريق (١٢٨) .

فلما كان اليوم التالى صحبت كثيراً من القشتاليين وذهبت لرؤية البابا «إيوجين» الذى تلقانى بالترحيب العظيم ، ورغب فى معرفة تفاصيل رحلتى إلى بيت المقدس والوقوف على أخبار سلطان مصر والسلطان التركى الكبير ، وكذلك عن الإمبراطور نفسه ومدى سلطته ، فأنبأته بكل ماطلب وأفضيت إليه بما لدى من المعلومات التى رضى بها ، ومن ثم غادرته .

ومضيت مساء ذلك اليوم للقاء إمبراطور اليونان وأعطيته كتابا من زوجته وأخيه الطاغية ، فتلقانى فرحا قائلا إننى من عشيرته ومن أهل بلده ، ثم قرّبنى منه وأجلسنى إلى جواره مستفسراً عن أخبار وطنه ، وطلب إلى أن أزوره كل يوم من أيام إقامتى ، وأبدى ما يكون عليه من المسرة التامة إن أقمت معه ، وبذلك توثقت المعرفة بيننا ، وكان الإمبراطور يعيش فى قصر من قصور مركيز دى فرارا على سطح الماء فى « بواتيلاو » التى يسمونها بالجنة ، وهى بقعة رائعة جداً .

إستأذنت ذلك اليوم واستجبت التماس القشتاليين الذين كانوا هناك ، وحلقت لحيتى التى كنت قد تركتها تطول زمناً ليس بالقصير ، ثم ارتديت زيّ الوطنى وذهبت ثانية لمقابلة الإمبراطور الذى ما كاد يرانى حتى قال إننى اخطأت فى حلق لحيتى إذ أنها غاية ما يشرف به الرجل ويكسبه الوقار ، فأجبته : « لكننا يا مولاى نؤمن بعكس ذلك ، فنحن لانطيل لحانا إلا فى حالة الحروح الخطيرة » وتكلمنا عن هذا الموضوع فترة من الوقت ثم عدنا إلى مسائل اليونان ،

واستفسرنى فى دقة عن الأوضاع هناك وعن زوجته وأخيه وحالة البلد وماذا يفعل التركى الكبير ، وعن حركاتى منذ أن كنت هناك ؛ فأجبته عن كل شىء أعلمه .

وكان على الإمبراطور أن يذهب هذا اليوم لرؤية البابا فمضيت فى صحبته ، وإن حمله بعض الرجال على كرسى لما كان يشكوه من مرض النقرس الذى أعجزه عن السير ، فاستقبله البابا باحترام عظيم فى قاعة فسيحة أعدت لذلك الغرض وكان معه عدد من الكرادلة ورؤساء الأساقفة والأساقفة ومركيز دى فرارا وغيرهم من سادة الإقليم وقد جلس كل فى مكانه الخاص به ، فكان على اليمين مقعد إمبراطور ألمانيا تتلوه كراسى ملوك المسيحية وأمرائها ، وعلى اليسار كرسى إمبراطور اليونان وبعض رجال الدين ، وتوسّط الجانبين مقعد البابا وكان عالياً فوق بقية المقاعد الأخرى ، واستمر انعقاد مجلسهم فى هذا اليوم مقدار ثلاث ساعات أو أربع وهم يناقشون — كما قيل — فيما بينهم بعض الاختلافات المتعلقة بالإيمان بين الإغريق واللاتين .

ثم انصرفنا بعد ئذ ودخل البابا حجرته بينما عاد الإمبراطور إلى قصره مصحوباً بأعضاء رحلته ، لأنه كان قد أحضر معه من اليونان رفقة كبيرة من الناس خرجوا جميعهم تقريباً فى ثياب طويلة ولحى كبيرة ليكسبوا أنفسهم مظهر الجد والوقار ، وكانوا فى الواقع أطيب صحبة ، وإن دَاخَل المرء شعور بأن أكثرهم كانوا من حاشيته وبطانته أكثر مما يريد أن يُظْهِرهم به ، ويقال إنه كان معه ما لا يقل عن ألف شخص .

ودخل الإمبراطور قصره وانفض الجميع من حوله إلا أنا فقد بقيت معه وذهبت بصحبته ودعانى لمشاركته طعام الغذاء على مائدته ، وكان شديد الرعاية بى .

الإمبراطور يوحنا الثامن باليولوجس
فى كنيسة قصر ريكاردى بفلورنسا

بعد ثمانية أيام من ذلك الحمل حل عيد القربان المقدس ، وعلى الرغم مما كان بصحبة البابا والإمبراطور من حاشية عظيمة رائعة إلا أن احتفاءهما به كان على صورة مهينة قد تشاءوما فيها قرية لا يزيد عـدد أهلها عن عشرة أنفس ، وذلك لتبدل العادات المرعية فى هـذا العيد نظراً للجموع الغفيرة من الأغراب التى وجدت حينذاك ، وبينما كنت هناك رأيت رسولين جاءا فى أمرٍ إلى البابا ، أحدهما من دوق برجنديا يسأله الإذن بسماع القداس بعد الظهر ، وثانيهما من قِبل دوق ألمانيا يلتمس السماح بأن يكون القداس قبل منتصف الليل .

* * *

ومدينة فرارا من أبدع الأماكن التى رأيتها ، وهى تضاهى « بلد الوليد » فى سعتها وإن امتازت عنها ببيوتها الحسنة جداً وشوارعها الجميلة ، ثم إنها حسنة التصوير ذات أبراج وخندق وبها قلعة واقعة على أحـد جوانب نهر بو ، ورغم جمال داخلها إلا أن خارجها أعظم جمالاً ، وتربتهـا شديدة الخصب وتتناثر بساتين الفاكهة فى شتى جهاتها ، وتدفع المدينة للبابا الجزية ، ويقال إنه استلم منها فى إحدى المرات مائة ألف أو مائة وخمسين ألف دوكات ، ولكنها أخذت فى التناقص بمقدار عشرة آلاف أو ستة آلاف دوكات ، حتى بلغت الآن ثلاثة آلاف دوكات وسأشرح حالا سبب هذا .

ذلك أن مركيز دى فرارا من أهـل فرنسا ويقال أيضاً إنه من سلالة « جالالون »[١٢٩] ، وتتبع تقاليد معينة خاصة بالخبز معه ومع الآخرين من نفس البيت كوضعهم الرغيف على المائدة مقلوباً وإدارته بالعكس ، ويقال إنه جاء إلى ملك فرنسا سائلا إياه أن يمده بالسلاح وأن يعفيه من هذا التقليد ، فأمدَّه

للملك بالسّلاح، ولـكنه قال إنه لا يستطيع إجابة مطلبه الثانى، وهذا المركيز سيد كبير ورث كثيراً من المدن الجميلة والبلدان والقلاع، بالإضافة إلى دخلٍ يقدّره القوم بثلاثمائة ألف دوكات، وهو رجل شديد المرح بهى الطلعة كلف باللهو والغزل، ويقال إن لديه على الدوام عشراً أو اثنتى عشرة محظية فى قصور خاصة له بالمدينة، ولا يقل عمره عن ثمانين سنة، وهو صغير الجرم مفرط السمنة، ويقال عنه فيما يقال إن زوجته ـ وهى ابنة أحد أدواق ألمانيا (١٣٠) ـ تولّعت غراماً بابنٍ له من زوجة أخرى، وتطور غرامهما إلى حد نسى الإبن فيه واجبه حيال أبيه ونسيت الزوجة واجبها تجاه زوجها، فانغمسا فى شهواتهما الجسدية، فلما علم المركيز بالخبر من أحد خدمه فاجأهما وهما يرتكبان الخطيئة، فبعث بهما إلى قضاة البلد ليقرروا الحكم الذى يوقعونه بهما، فعاتبه كثير من سادة البلد وغيره حتى إن البابا توسّل إليه أن يسلك سبيل الرحمة، فكان ردّه على الجميع أنه لن يأمر بقتلهما أو المنّ عليهما بالحياة بل يترك تقرير ذلك للقضاة يحكمون بما يرون، فقضوا ـ فى حضوره ـ بقتلهما، فأخذوهما فى الحال إلى حيث تنفذ العدالة وأنفذوا الحكم فيهما، ولو رحنا نصف كل ما حدث لاستغرق ذلك وقتاً طويلا، ولـكن المركيز أمر بتهيئة زورق كبير ركبه وأبحر به الى بيت المقدس، فلما عاد تزوج من ابنة دوق آخر من أدواق ألمانيا، وكانت فتاة شديدة الجمال فى الخامسة عشرة من عمرها بينما هو فى الثمانين، ومن ثم فلا مشاحة إن وقعت بلّية أجلّ من الأولى.

وللمركيز عدة أبناء من زوجته الأولى لا زالوا فى دور الطفولة، كما أن له ابناً شاباً من أم ولد فى الثلاثين من عمره، على جانب كبير من الفضيلة إلى جانب أنه فارس فى الحرب مغوار، ولما رأى المركيز أن إيطاليا لا تعرف أبداً

السلم وأنه لابد تاركٌ أملاكه لهؤلاء الأطفال الذين لا يعرفون كيف يحكمون — مما سيؤدى حتما إلى المضرة — فقد اعتزم ترك أملاكه إلى هذا النّغل ، ومن ثم اعترف بأبوته الشرعية له ، وقرره وريثه فى كل ما يملك ، وأمر الناس بتقبيل يديه واعتباره حاكمهم ولقد استشار المركيز البابا فى ذلك فأذن له ، ثم أصدر المركيز أمره بإعطاء أكبر أولاده الشرعيين — وكان لا يزال صغيراً — نصف الدخل ، وأن لا يكون له من الحكم شىء .

ولقد رأيت ذات يوم هناك احتفالا كبيراً فى القصر حضره جمع غفير من علية القوم من الرجال والنساء وأقيم استعراض ، فلما فرغوا منه تسابقت السيدات جميعهن فى الجرى لمسافة معينة قد وضعت فى نهايتها ثلاث قطع من القماش : إحداها من الحرير المطرز ، والثانية من المخمل القرمزى ، والثالثة حمراء اللون ، فنالت الفائزة الأولى القطعة الحريرية والثانية قطعة المخمل والثالثة الحمراء ، ولكن لو كانت هناك[١٣١] « جراندىلاّ دى ألكوديا » Garandilla de Alcudia لقطعت المسافة ثلاث مرات ولربحت جميع الجوائز .

والمركيز رجل مرح ، فيه ما يفصح عن عرقه الفرنسى .

* * *

ولقد بقيت فى هذه المدينة عشرين يوماً أستجم وأتأهب للقيام برحلتى إلى ألمانيا ، واشتريت من الدواب ما أحتاجه أنا وجماعتى ، فلما تم كل شىء مضيت إلى إمبراطور اليونان مستأذناً إياه فى الرحيل فسألنى أن أعود لزيارته مرة أخرى قبل عودتى إلى إسبانيا ما دام لا بد من عودتى إلى البندقية لأخذ بضاعتى فوعدته بذلك ، ورحلت من « فرارا » واجتزت منطقة الحدود إلى مدينة تسمى « بارما » على نهر « بو » وتابعة لدوق ميلان .

فلما اجتزت النهر وجدت « نيكولا[١٣٢] بتشنينو » قائد عام الدوق على رأس عشرين ألف فارس وهم يؤلفون أجمل فرقة وقعت عليها عيناى ، ويقال إنه كان ذاهباً للاستيلاء على بولونيا التابعة للبابا ، فمكثت ثلاثة أيام فى « بارما » لأشاهدهم وهم زاحفون ، وكان من أجمل المناظر رؤية فرقة من الرجال مثل هؤلاء رائعة التسليح ممطية صهوات جيادها وقد جهزت بكل ما هو لازم للحرب ، وأحسن من هذا كله أن يكون على رأسهم مثل هذا القائد الفطن القدير .

وفى هذه المدينة أحسن أنواع الكريز التى رأيتها .

ذهبت من هناك إلى مدينه « بياتشنزا » التابعة لنفس الدوق ، وهى أيضاً مدينة كبيرة يقطنها سبعة آلاف أو ثمانية آلاف شخص ، فلما كان اليوم التالى رحلت عنها إلى « ميلانو » الضخمة التى تعد من أعظم مدن العالم المسيحى ، بل إن الواقع يؤكد ما يقوله الكثيرون من أنها أعظمها جميعاً ، ومع عدم اكتراث القوم بتسويرها إلاّ أنه يحيط بها فندق كبير له متراس ضخم وبداخله المدينة وهى حسنة البناء ، وشوارعها جميلة جداً . وإن رؤية ميلان فى يوم عمل لأروع وألذ من مشاهدتها فى يوم عطلة ، فشوارع صناع الأسلحة وبيوتهم أبهى ماتكون منظراً ، وكذلك دور صناع الرماح والسرج والخياطين الذين يصنعون ملابس الحرب وأدواتها ، وهم الذين يعرفون كم عدد حكام إيطاليا وكم بها من قواد الجيوش وما رتبة كل منهم ، وجميع هؤلاء الحرفيين مجهزون بكل شىء يستطيعون معه إمداد هؤلاء جميعاً بكل ماهم فى حاجة إليه ، مهما عظمت مكانة الطالب فى إيطاليا .

وجميع الصناع مهرة بارعون ، ويقومون بإنجاز أعمالهم فى انتظام .

ويوجد بالمدينة المكان الذى يعيش فيه الدوق، وهو قصر بالغ الروعة ،عظيم الاتساع، يكتنفه سور قوى ضخم فيه شرفة حصينة جداً، وله خندق عميق واسع يخترقه النهر الذى يصطاد منه الأهالى كثيراً من السمك ، ويقوم هذا المكان على أرض مستوية على أحد جانبى المدينة . والواقع أنه لا يوجد فى كل أرجاء « لمبارديا » بيوت مشيدة على الصخور ولكن بناءها فى السهول لا يجعلها بحال من الأحوال أقل منعة ، إذ إنها محاطة من جميع نواحيها بالخنادق .

وتزخر هذه المدينة بكثير من الكنائس والأديرة الشهيرة لاسيما كنيستها الكبرى التى لا زالوا يعملون فى بنائها حتى اليوم والتى يسمونها « بالقبة » وهو بناء فخم جداً ، ويرتلون فيها القداس الأمبروزى الذى هو عكس قداسنا ، كما علمت أيضاً أنهم يختلفون عنا فى أداء الصوم الكبير .

ويقوم بها دير غنى جداً لجماعة الإخوان المبشرين قد دفن فيه القديس بطرس الشهيد الذى يعتقد أنه استشهد فى هذه المدينة .

ولا يسمح دوق[١٣٣] ميلان لأحد ما أن يراه ، ويعللون ذلك بخوفه من أن يدس له ذلك الأحد السم ، لكن حدث فى ذات يوم أن كان فى بستان هناك فرأيته وتحدثت إليه فتبينت أنه رجل فطن رشيد ، جاد شريف ، ضخم البنيان والتركيب ، ذو أنف طويل جداً ، حليق الرأس عاريها ، ولم يكن يقوم على خدمته كثيرون ، ويقول الناس عنه إنه لا يحفل بأحد غير المحاربين وحملة السلاح الذين يبقيهم على الدوام فى المعسكرات وميادين القتال ، والواقع أنه مصيب فى تقدير أمثال هؤلاء الرجال .

وليس لهذا الدوق من ابن أو بنت سوى واحدة من أم ولد ، زوّجها لكونت فرنشسكو الذى هو الآن دوق ميلان[١٣٤] .

وليس للمدينة ندّ أو ضريب بين المدن المسيحية فى مساحتها وكبرها وعدد سكانها : أشرافاً كانوا أم صناعاً ، ويقولون إن دخل الدوق من المدينة وحدها يبلغ ألف دوكات فى اليوم ، ولا يستطيع أحد ما دخول المدينة إلا إذا حصل أولا — عند دخول أراضى الدوق — على شهادة تثبت أنه قادم من بلد صحى غير موبوء بالطاعون ، وهم يلتزمون هذه القاعدة أشد الالتزام، ويقال إنه لم يصب أى جزء من القطر بالوباء منذ ستين عاماً .

واستفسرت عن أمور كثيرة تتعلق بحكومة المدينة وهى منظمة جداً ، وكان استفسارى أكثر عن أحوال أهل بيت الدوق ورجاله، ويقال إنه محرّم على أعضاء مجلسه الحكومى أخذ مال إلا منه. وإذا كان ثمت ضرورة تستدعى عقد هذا المجلس وتتطلّب رأيه أرسل إلى كل عضو من أعضاء المجلس ورقة مكتوبة تتضمّن المسألة التى يراد البت فيها ؛ فيكتب كل واحد رأيه فى أسفل الورقة دون مشاورة رفاقه ، فإن خالف أحدهم هذا المنهج وحاد عن هذه الجادة إلى غيرها أنزل به الدوق العقوبات الشديدة . ثم يقرأ الدوق رأى كل عضو من أعضاء المجلس ويختار من بينها ما يراه أحكمها .

ولقد استحقت قراراته الثناء العظيم خلال حكمه .

الفصل الثانى والعشرون

الطريق إلى ألمانيا . عبور الألب . ممر سنت جوثار . بازيل .
الحمامات . غسل الذهب . ستراسبورج . الحيطة
ضد النار . ميتز . الرين . كوبلنز .
الوصول إلى كولونيا .

. . .

رحلت من ميلان ميمما شطر ألمانيا ، ولما لم أصل إلى أى مدينة هامة تستحق الإشارة فليس لدى ما أقوله ، غير أننى وجدت كثيراً من الأماكن الخربة التى أتت عليها النيران ودمرها القائد الإيطالى الكبير «فرانشينوكانى»،[١٣٥] فلما كان اليوم الثالث من مغادرتى ميلان أدركت مدينة ألمانية يسمونها «لوسرنا»[١٣٦]، غير أن الضرورة ألحّت علىّ - قبل تمكنى من دخولى إياها - أن أضع جميع الدواب والأحمال على المراكب ، وأن أعبر بحيرة ضخمة تستمد مياهها من جبال الألب ، وهى بحيرة شديدة العمق تمتد مسافة أربعة فراسخ تقريباً وتزخر بشتى أنواع الأسماك التى يقال إنها أشهى ما تكون طعما ، وتحتوى هذه المدينة على ما يقرب من ألف وخمسمائة مسكن ، وهى حسنة التسوير ، تزينها الدور الجميلة المشيدة على الطراز الالمانى وبداخلها المواقد ، وتزخر بالحانات الرائعة .

* * *

ولقد غادرتها فى اليوم التالى ووصلت إلى سفح ممر سنت جوثار الموجود فى بقعة عالية من جبال الألب ، وشرعنا فى ارتقائه غداة وصولنا بعد اتخاذ

الإجراءات اللازمة والاستعدادات الضرورية ، وكان الوقت إذ ذاك أخريات شهر أغسطس حيث يذوب الجليد بسبب شدة الحرارة مما يجعل السير بالغ الخطورة ، ويستعمل الأهالى فى تلك الجهات ثيرانا ألفت عبورها ، ومما يستعملونه نوع من الدواب يسير فى المقدمة وهو يجر حبلا طويلا قد شُدّت إليه مقطورة تشبه النورج القشتالى[١٣٧] ، يجلس عليه المسافر حيث يمسك حصانه خلفه بلجامه ، وبذلك يتم عبور الممر فى أمان ، فإن قُدّر حدوث مضرة لم تتعدّ هلاك الثور .

وحين يجتاز المسافرون المعابر الضيقة ويكون الثلج المغطى للجبال على الجانبين موشكا على الانهيار فإنهم يطلقون النيران حتى تتساقط تلك الثلوج التى تكون دانيةً من السقوط ، ويحدث فى بعض الأوقات أن تسقط الثلوج الهشة وتدفن المسافرين بين طياتها ، وتفيض القنوات والأنهار فى ذلك الفصل بمياه الجليد الذائبة .

وهذه الجبال شديدة الازدحام بالسكان ، وحيثما سار المرء صادف فى طريقه الخانات والدساكر الصغيرة ، ولقد تسلقنا فى هذا اليوم صومعة القديس « جوثار » الموجودة فى بقعة تكاد تمس السماء ، ومع ذلك فهناك جهات تشأوها ارتفاعا حتى ليقول الرهبان إنه لم يتسنّ لأحد ما رؤية قمتها لأنها ملفوفة على الدوام فى الغيوم ، ومن هنا يستطيع المرء رؤية إيطاليا ، ويمكن لذوى البصر السليم الحاد أن يروها بأكملها وذلك لارتفاع الجبال فى هذه الناحية ارتفاعا هائلا على حين أن الأرض الإيطالية بالغة الانبساط والانخفاض بالنسبة إليها .

حين بلغنا هذه الجهة دفعنا أجر دوابنا وسرنا عبر الجبال فى الطريق المؤدى إلى « بازيل » الذى يزخر بكثير من السنانير وغيرها من المخلوقات والحيوانات ، كالماعز التى يتخذ الناس من جلدها « الشموا » .

وأخذنا سمتنا فى هذه الطريق ، وانحدرنا من الجبال والقمم ، وظللنا سائرين مدة يوم عبر السهل حتى أدركنا مدينة « بازيل »[١٣٨] الرائعة ، حيث كان المجلس الكنسى منعقداً يومئذ ، وقد ازدحمت المدينة بطائفة كبيرة من الخلق من شتى الأجناس ، من بينهم كثير من الأشراف الإسبان رغم أن « الفيريز »[١٣٩] كان قد غادرها حينذاك ، ومع ذلك فقد ظل بها من بعده كردينال « سان بدرو » وأسقف « كونيكا » وأسقف « بيرجوس » وغيرهم .

وتقع المدينة على شاطىء النهر الذى ينبع من الألب ومن بحيرة « شافهاوزن » ، وهو سريع الجريان سرعة مخيفة ، وطالما حدث أن جرفت المياه معها فى اندفاعها كتلا ضخمة من الثلج المتجمد كأنه الأحجار صلابة فدمرت المبانى وهدمت الجسور وقضت على كل ما اعترض سبيلها ، الأمر الذى يجعل البحارة فى خطر دائم من مصادفتهم إحدى العقبات التى يكون فيها هلاكهم رغم ما يتمتعون به من براعة فائقة وحذر بالغ ، إذ لا يتأتى العودة مطلقا للمراكب التى تنحدر مع النهر فى جريانه لأنها لا تستطيع أن تشق طريقها ضد تياره ، والواقع أن هذه هى الخطة التى يتبعها القوم فى السير مع التيار الذى يصيب الإنسان بالدوار إن نظر إليه ، ويزخر هذا النهر بكثير من الأسماك الشهية والمفيدة ، ومن بينها أسماك « السالمون » الشديدة الضخامة .

* * *

وتحفل مدينة بازيل بكل المنتجات الألمانية والأنبذة الرائعة وغيرها من المشروبات ، وهى حصينة التسوير رائعة البناء ، وتتألف دورها من عدة طوابق ذات مداخن عالية ، تزينها النوافذ الزجاجية المطلة على الشوارع ، وتمتاز معظم عمائرها بالأبراج ذات الصلبان ودوارات الريح ، والمدينة جميلة جدا من الداخل ، وهى أجمل ما تكون منظراً من الخارج ، وشوارعها مرصوفة بالحجارة ، وتكثر فيها أحواض مياه الشرب ؛ أما كنائسها وأديرتها فبالغة الروعة ، وأما بيعتها الكبرى فشيدة أحسن تشييد ويعقد فيها المجمع الكنسى اجتماعاته ، وبلغ سكانها ـ رجالا ونساء ـ فى الظرف غايته وفى الثراء منتهاه ، وتحكم المدينة نفسها بنفسها رغم تبعيتها للإمبراطورية ، ويقال إن أهل باذل لايلتزمون للإمبراطور بشىء سوى استضافته للغذاء حين يكون بها ، وسوى إمداد ، بزوج من السراويل القصيرة ، لكن فى استطاعته دعوتهم للحرب. وتتصل بالمدينة ضواح كبيرة آهلة بالسكان ، وقد توافد على بازيل جموع كثيفة من المتسولين من شتى رحاب ألمانيا الذين جذبهم إليها المجلس الكنسى ، ويكادون وحدهم يكوّنون فى مجموعهم مدينة كبرى .

ولقد سمعت أن « كردينال سان بدرو » كان فى منطقة جبال الإلب فى حماماتها الساخنة التى يسمونها بالحمامات المقدسة ، وعلى بعد ميل منها تقريبا دير عظيم اسمه دير « ماريا ستيلا »[١٤٠] الذى ظل الكردينال مقيما به ستة أشهر ، كراهية منه فى أن يدخل بازل مخافة أن يغضب البابا « يوجين » ؛ ولكنه كان يدبر أمور مولانا الملك من هذا المكان ، ولقد ذهبت لرؤية الكردينال الذى لقينى أحسن لقاء ، ولما كنت لا أزال أشكو من الجرح الذى أصابنى فى « تروى »[١٤١] والذى يبدو على الدوام أن السفر يزيده سوءا فقد حملنى

الكردينال على الإقامة عنده تحت إشراف مطبب يقدره رجال الدين والمدنيون على السواء أعظم التقدير ، ولا جدال فى أنه أهل لهذا التقدير بفضل شخصيته البارزة ، وفضائله السامية وأمانته الفائقة ، واستغرق علاجه إياى عشرين يوما عوفيت بعدها ولقيت الشفاء على يده ، وينظر الرهبان إلى هذا المطبب بمحبة زائدة، إذ لم يقف الأمر عند أفضاله عليهم بل أقام لهم حجرات دافئة ، كما استنبط غير ذلك من المزايا لخدمة الدير الذى يقع عاليا فى الجبال وفى مكان يعتبر أكثر أماكن ألمانيا برودة .

* * *

ومضيت لرؤية الحمامات حيث ألفيت حشدا كثيفا من المرضى والحجاج الذين قدموا إلى تلك البقعة من جهات قاصية وفاء لنذور وعهود قطعوها على أنفسهم ، ولا يخطر ببالهم شىء من ناحية الرجال والنساء الذين يسبحون عرايا جنبا إلى جنب ، والذين جرت عادتهم أن يمارسوا بعض الألعاب ويتناولوا طعامهم وهم فى الماء ، ولقد قابلت هناك سيدة كانت تؤدى فريضة الحج من أجل أخيها المأسور فى تركيا ، وكثيرا ما ألقيت بعض العملات الفضية فى المسبح وكانت فتياتها يغطسن وراءها يلتقطنها بأفواههن ، ويستطيع المرء أن يتصور ماذا يمسكن فى الهواء حينما يجعلن رءوسهن إلى تحت، والقوم هناذو و أصوات جميلة حتى إن العامة منهم لينشدون بعض الأغانى بمهارة فائقة تحسبهم معها فنانين .

* * *

لم يكد يتم شفائى من جرحى حتى التمست الإذن من الكردينال وعدت إلى بازيل فى صحبة السيدة التى لقيتها فى الحمامات، ولم أتركها حتى بلغنا مدينة

« كولونيا » التى كانت بها أملاكها ، وفى اليوم الأول من رحيلنا — بعد مغادرة الحمامات — سافرنا مبحرين إلى مدينة تسقط فيها مياه النهر من مكان يبلغ برجين ارتفاعا ، وحينذاك أنزل البحارة الركّاب وشدوا القوارب بأمراس طويلة لتنحدر مع المياه الساقطة ، حتى إذا صارت فى الجهة السفلى مصوا إليها ثم عاودها ركابها لتنطلق بهم سريعة بقوة المياه المندفعة بعنف كبير من الجبال ، وبذلك وصلنا إلى بازيل ثم غادرناها بعد أن أقمنا بها ستة أيام .

* * *

وصلنا بعدئذ إلى مدينة شاهدت على شاطئها جموعا من الناس تغسل الذهب من رمل النهر ، ويتبعون فى ذلك الطريقة التالية وهى أنهم يضعون مائدة على مقعد طويل مجاور للمياه ، وتكون إحدى قوائم هذا المقعد على حافة النهر وقوائمه الأخرى مرتفعة ، ثم يضعون فوقه قطعا من الخشب أشبه بالسلالم يكاد عرضها يبلغ ذراعا ، ويأتون بالرمل بعدئذ من مجرى القناة ويقذفون به إلى أعلى المائدة ، ويتركونه ينحدر تاركا وراءه نوعا من الطمى الأبيض عالقا بالسلالم ، حتى إذا تجمّعت لديهم منه كمية ضخمة وضعوها فى حوض ماء مجاور لها حتى يمتلىء الحوض ، ولما كان الذهب ثقيل الوزن فإنه يترسب فى القاع ، وحين يرفعون الطمى بأيديهم يمكنهم رؤية الذهب يبرق ، إلا أن الحظ لا يواتيهم كل يوم ، على أنهم يكوّنون من هذا الذهب العملة المعروفة باسم « ذهب الراين » .

* * *

وتقوم على جانبى النهر المدن والقلاع متجاورة آخذ بعضها بحجز البعض الآخر ، كما تقوم على شاطئه الكنائس والأديرة الرائعة ، هذا إلى وجود كثير من مستشفيات الجذام « لسنت لازار » مما تستحق المشاهدة ، ويقال إن انتشار هذا المرض راجع بالضرورة إلى كثرة أكلهم الناس السمك وإقلالهم الشديد من شرب النبيذ واستعمال الزيت ، ويروون فيما يروون أن إبناً لأحد أدواق ألمانيا قدم ـ منذ زمن غير بعيد ـ مع زوجته ـ وهى ابنة دوق آخر ـ ليقضى ليلة فى أحد بيوت المجذومين ، فسولت لهم أنفسهم اغتصاب السيدة مما حمل الزوج على قتلها، فقتلوه هو الآخر ، فلما عرف أهلهـــا الخبر قدموا وأحرقوا البيت بمن فيه ، لكن لو أردنا أن نروى كل ما حدث لضاق المكان عن استيعاب ذلك .

وفى اليوم التالى وصلنا إلى مدينة «ستراسبورج» التى تسمى فى اللاتينية «بأرجنتينا» أى «مدينة الفضة» ، والحق أنها من أبهج المدن فى العالم المسيحى إذ ينساب النهر فيها متخللا شوارعها . وهى ذات أسوار حصينة وخنـــدق شديد العمق ، حسنة البناء ، وشوارعها بهجة المنظر مستوية جيـدة الرصف ، وتوجـــد بها كثير من المدافن كما تحفل بيوتها بالمواقد ، وخاناتها جميـــلة ، وكنائسها وأديرتهـــا رائعة فى بابها مما تستحق المشاهدة لا سيما كنيستها الجامعة التى هى نسيج وحدها فناً ، ولها برج فخم به الساعة ، مما لم أر لهـا قط مثيلا فى الجمال ، ويقف على البرج ـ فوق الساعة ـ ثلاثة من القسس يتناوبون الحراسة فيما بينهم طول الليل ، وكلما دقت الساعة نفخوا فى بوق أشبه ببوق الرعاة ولكنه ذو دوىّ أضخم من دوىّ الطبلة ، ويقول الناس إنما أقيم هؤلاء الرجال هناك كرقابة ضد النيران ، ويوجد فى كل أبرشية جماعة من

القواد، فإذا دوى النفير إنذاراً بالنار عرف كل رجل لواءه فمضى قدماً إليه ، وإذ ذاك يسير كل شيء وفق نظام معين ، فالبعض يحضر زكائب القش ، وآخرون يأتون بجرادل المياه والفؤوس والخطاطيف الحديدية والرماح الطويلة ، وبذلك تكون جميع وسائل الإنقاذ موجودة فى الحال ، ولقد ذهبت ذات ليلة لمشاهدة تغيير نوبة الحراس ، والواقع أنه منظر رائع جدير بالمشاهدة . وهذه المدينة رائعة حقاً .

ثم رحلنا بعدئذ إلى « مينز » ، التى يوجد على يسار داخلها مقعد شاهق الارتفاع من الكاس والحجر هو الذى يتم عليه انتخاب الإمبراطور[١٤٢] الذى يتحتم حضوره إلى ها هنا وبقاؤه مدة ثلاثين يوما ليرى عما إذا كان ثم أحد ينازعه وينكر عليه انتخابه ، وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يظهر له منافس يجلس على هذا المقعد ويحل محله ، وهذا رسم مفروض على كل المتنافسين حتى يتحقق الجميع أن الاختيار تم علناً .

• • •

ثم جئنا بعد ذلك إلى « مينز » وهى مدينة كبيرة جداً آهلة بالسكان حسنة التموين والثراء ، كما أنها واحدة من كبرى أسقفيات ألمانيا ، وتمتاز بكنائسها وأديرتها البالغة الجمال وسكانها الظرفاء ، وقد استغرقت إقامتنا بها مدة يومين سافرنا بعدهما إلى « كولونيا » ، ومن الحق أن نقول إن للرين منظراً شديد البهجة ليس لجماله من ضريب فى العالم كله ، وتقوم على جانبيه المدن الرائعة والقلاع العدة .

إستمتعت بالجمال العظيم الذى يعجز الإنسان عن وصفه ، كما أن المدن

والقلاع مزدحمة بنازليها ويتاخم بعضها بعضاً ، وتزدان أبراجها بالصلبان العالية ودوارات الهواء المذهبة . ووصلنا عن طريق هذا النهر إلى مدينة رائعة تدعى « كوبلنز » ، وفى مواجهتها على الشاطىء من النهر أبراج وحصون لورد « هانزبيرك »[١٤٣] الفارس الذى خرج ذات مرة حاجاً إلى مزار «سنتياجو» حيث وقع فى الأسر وحمل إلى « بيرجوس » ، ولم يستطع فكاك أسره إلا بعد أن سمح لجماعة من تجار « بيرجوس » — الذين كانوا أسرى فى ألمانيا — بالعودة إلى قشتالة ، فلما تم ذلك ردت على اللورد الفارس حريته ، لكن بينما كان فى طريق عودته إلى ديارهإذا به يقع فى أيدى «فردنند كونت فيلاندراندو» الذى استبقاه فى أسره طلباً للفدية ، ومن ثم كانت رحلة حجه رحلة منكودة سيئة الطالع .

ولقد أسدى البعض لى النصيحة بأن أسرع فى مجاوزة هذه المنطقة تجنباً لأى ضرر يلحقنى من هذا اللورد ، فامتثلتُ لإشارة هذا البعض ، وكان فى صحبتى — طوال ذلك الوقت — تلك السيدة التى ذكرت مقابلتى إياها فى الحمامات ، وحينذاك رحلت وأمضيت الليل فى مدينة « كولونيا » العظيمة الرائعة وهى مقام تلك السيدة ، فدعتنى إلى دارها وأسبغَتْ على كثيراً من التشريف خلال إقامتى لديها ، تلك الإقامة التى طالت حتى بلغت ثمانية أيام .

وفى اليوم التالى بعث إلى لورد « هانزبيرك » بأحد أولاده مع جماعة من السادة يسألنى الذهاب إلى مزارعه حيث أجد المتعة والراحة وحتى لا أصدق ما تَقَوَّلَ به الناس بشأن نواياه ، رغبة منه فى أن يتأكد السلم بينه وبين القشتاليين الذين لم يفعلوا أكثر من القيام بواجبهم ، وذكر لى رسله

أنه لا يحب أبداً أن يكابد القادمون ضراً يأتى من جانبه ، وقالوا أيضاً إن الإمبراطور بعث إلى اللورد فى قصره رسالة يأمره فيها باستقبال أى فارس يأتى إلى تلك الناحية ، فشكرته شكراً جزيلا على نيته الطيبة ، وذكرت له أن لا بد لى من المبادرة بالعودة إلى دوق برجنديا ثم أكر راجعاً إلى المجلس الكنسى ، وأرجأت زيارتى إياه إلى مرة قادمة ، ثم استأذنت فى السفر .

* * *

الفصل الثالث والعشرون

كولونيا . الخانات . أسقف ديتريش . الكاتدرائية .
معجزة بالكنيسة . السوق . الرحلة فى الراين .
دوق كليفس . نيميجين . بوالى ديك .
بروكسل . فيليب الطيب .

. . .

بقيت فى مدينة كولونيا هنا فى هناء عظيم وبدلت دوابى نظراً لما كان قد حل من إنهاك بما كنت قد جلبته منها معى ، وكولونيا أغنى مدن ألمانيا وأجملها على الإطلاق ، إذ يقع الراين على أحد جانبيها ، وتمتد على الجانب الآخر الحقول والمراعى الفسيحة التى تشبه مثيلاتها التى تكثر فى العادة بألمانيا ، وهى جيدة التسوير لها خندق عميق جيد وشوارعها لطيفة ، وتحفل بعدد من الصناع الذين يمارسون شتى الحرف ؛ وتمتاز البيوت القائمة داخل المدينة بجمالها وإن فاقتها دور ضواحيها التى تشأوها روعة وعدداً ، أما الفنادق ففاتنة وجديرة بأن تستضيف أى ملك إن دعت الحاجة إلى مثل هذه الاستضافة ، وقد جرت العادة أن يتفق عدد من الأثرياء فيما بينهم على تأسيس نزل فيساهم كل واحد منهم بدفع قدر معين من المال لقاء تسلمه جزءاً من الأرباح يتناسب والمبلغ الذى دفعه ، ثم يختار هؤلاء السادة من بينهم رجلا شريف الأصل ليكون المضيف ، وحجتهم فى ذلك أن المضيف الطيب يلائم النزلاء الطيبين ، وقد يحدث فى كثير من الأحيان أن يرغب أحد الأفاضل فى أن يعتكف عن الدنيا

حين تطعن به السن ، وإذ ذاك يأتى إلى القيم على الفندق ويساومه على مبلغ يتقاضاه منه بقية حياته ، فيشغل حجرة وفراشاً ، ويتناول وجبتين رئيسيتين وأخرتين صغيرتين ويدفع قدراً معيّناً من المال للقداس ، فإذا وفى بذلك كله عاش رضى البال ما تبقى له من العمر .

وتوجد هناك أمور أخرى هامة فيما يتعلق بفنادقها مما يستغرق سردها زمناً طويلا ، فقد فهمت أن بها حركة كبيرة وإدارة حكيمة ، والتسلية بها رائعة .

وبهذه المدينة سيد كبير هو كبير الأساقفة[١٤٤]، أهّلته لهذه السيادة مكانته ومولده ، إذ أنه ابن أحد الأدواق ، ولكنه فى اعتقادى أجدر بالأمور الدنيوية منه بالمسائل الدينية ، وقد كان أكرمَ الناس وأحفاهم بى ، وأحسست معه بألفة لا يحسها إلا من كان قد نشأ معه ، فطاف بى أرجاء المدينة راكباً ، وأرانى كنائسها وأديرتها وقصور السادة والسيدات اللائى — بدى لى — أنه لا يتأفف منهن .

والكنيسة الكبرى بالغة الروعة ، وهى من أفخم المبانى ولا زال العمل فيها مستمراً حتى الآن ، وفى وسط أكبر الكنائس الصغرى مذبح صغير محاط بحظائر حديدية حيث يرقد الملوك الثلاثة ، ويقولون إنه حدثت منذ أيام قلائل سالفة معجزة بالغة على الصورة التالية :

ذلك أن الكنيسة الصغيرة الخاصة كانت قد كملت إلا من حجر كبير يعلو سطحها ، وبينما كان القوم يرفعونه لوضعه حيث يجب إذا به يقع من الحبال المشدود بها فوق البقعة التى سجيت بها أجساد الملوك الثلاثة ، وإذ ذاك

تحرّك الضريح من تلقاء نفسه مسيرة خطوة ، فسقط الحجر واستقر إلى جانبه ، وهذه الأجساد الثلاثة محفوظة كى يراها الناس من قمة الرأس إلى أخمص القدمين ، وهى سليمة لم تمس ، ولا شك أنها آثار بالغة القداسة ، ومن ثم يرعاها الناس ويوقرونها توقيراً عظيما .

وبهذه المدينة دير للراهبات يثوى فيه جثمان العذراء القديسة « آرسولا » وجثث إحدى عشرة ألف عذراء أخرى بتن معها ، وقد تلقت « آرسولا » هنا الشهادة ، وهذا الدير كبير وهو مكان شهير للحج

وفى أثناء إقامتى بالمدينة انعقد سوقها وعرض فيه كثير من أنواع المتاجر لا سيما عدد من الخيول الإنجليزية وجياد السباق وحُصُن الجر مما أعجبنى جداً ، والألمان شعب مثابر جداً ، وهم كما قلت بارعون على وجه الخصوص فى الصناعات اليدوية .

* * *

تركت كولونيا وسرت منحدراً مع النهر حتى جئت إلى بلدة تابعة لدوق « كليفيس »[١٤٥] والد أميرة « نفارة » ، وهو متزوج من إحدى أخوات دوق برجنديا ، كما أنه إقطاعى كبير ذو أرض واسعة ودخل كبير وإن قيل إن أحسن ما بيده من الأراضى قد سلبه من جيرانه بعدوانه الشخصى ، وقد تلقانى الدوق لقاء كريماً جداً وأحسن استقبالى وأمر بإطلاعى على شعاره الخاص وعرفنى بالشروط الخاصة به ولكنها بدت لى أشد ما تكون خشونة ، ولما كان البابا قد أحلنى من اليمين المتعلق بهذا الشعار الذى حملته فإننى لم أستطع الموافقة على ارتدائه .

* * *

رحلت من هذا اللورد وانحدرت مع الراين على اليمين فجئت إلى بلدة تسمى « نيميجن » أى « مايو الجديد » التى أسسها يوليوس قيصر ، وبها لوحة قد نقشت عليها القصة كاملة وهذه البلدة تابعة لدوق «جيلدرز[١٤٦]» وهو من كبار الحكام بل لعله أغنى من ذلك الحاكم الذى تركته حالا ، كما أنه متزوج من إحدى بنات دوق برجنديا .

وهذه البلدة أجمل بلدة اكتحلت بها عيناى من كل الوجوه ، فهى شديدة المناعة إذ بنيت على الصخور القائمة وراء سور قوى وخندق منيع ، فأقمت بها ثلاثة أيام ، ولقيت دوقها الذى كان مقيما إذ ذاك على مسافة مرحلة خارجها فى قصر له فى الريف للركوب والصيد ، فتلقانى لقاء ليس أكرم منه ، ورأيت معه الدوقة وأبناءهما وبناتهما ، فرغبوا إلىّ أن أتناول الغداء معهم ، فلما حل المساء استأذنت منهم وعدت أدراجى إلى المدينة ، حتى إذا كان اليوم التالى سافرت وبلغت بلدة كبيرة اسمها « بوا ـ لى ـ ديك » واقعة فى منطقة « برابانت » وتابعة لدوق برجنديا ، وهى مكان شهير جداً رغم أنها غير مزدحمة بالسكان ، ويخترقها النهر فى كثير من الأماكن . ويربى الناس من البجع ما يضاهى فى كثرته أوز قشتالة ، ويقال إن الدوق يأمر بتوزيعها بين الناس الذين يربون الطيور ويقدمون إليه تقريرا عنها ، فإذا كانت أيام الأعياد أكلت واعتبرت من المبالغات فى الترف ، وقد اشتريت هنا حصاناً بستة عشر دوكات وإن كان يساوى بلا شك مائة دوكات فى بلدى .

* * *

رحلت بعدئذ إلى « ليلا »[١٤٧] الواقعة هى الأخرى فى برابانت

وتابعة أيضاً لدوق برجنديا ، وهى بلدة لطيفة جدا ، وقد جرت عادة أهلها على السفر فى عربات ، لكننى لم أستطع تحمل السفر بها لأننى أوثر البحر عليها ، ومن ثم دأبت على الركوب على حين تبعنى رجالى فى هذه العربات .

وتتناثر الطواحين الهوائية بين مرحلة وأخرى فى القسم الأكبر من هذا الإقليم ، ويحرق أهله أحجار الكلس وقوالب الطوب بدلا من الخشب ، ولذلك يعمد صاحب كل أرض إلى إعدادها فى الصيف وتجفيفها فى الشمس ويحتفظ بها إلى دخول الشتاء ، ونار هذه القوالب لطيفة ويقال أنها نافعة جدا للصحة ، والخمر هنا شديدة النـدورة ، ويشرب الناس الجعة لرداءة الماء .

تركت « ليلا » إلى « مالينز » التى يسميها القشتاليون « ميلينـاس » ، وعلى الرغم من صغرها إلا أننى لم أر من قبل أو منذ ذلك الحين مكاناً يدانيها فتنة ، ويجد الدوق مسرة كبرى فى المجىء إليها للاحتجام بها استجام الشخص فى المدينة ، وليس له قصر فى البلدة ولكنه ينام فى فندق بلغ الغاية فى الروعة حتى إنه لا يصلح لهذا الأمير وحده بل لأعظم أمير على وجه البسيطة .

بقيت يومين بهذه البلدة التى أعجبتنى غاية العجب بفتنتها وجمالها ، ثم غادرتها إلى « بروكسل » الواقعة أيضاً فى برابانت ، فوجدت بها دوق برجنديا وزوجته[١٤٨] الدوقة فقدمت لهما احترامى ، فتلقيانى أحسن لقاء ، وقد حمل الدوق على ذلك أصله الفرنسى والحب الذى يكنه للقشتاليين ، أما الدوقة فلأصلها الإسبانى وقرابتها لمولانا الملك جوان إذ أنها ابنة

عمته ، وقد أمر الملك بإسكانى وتوفير المسكن لى وتهيئة كل ما يلزمنى أنا ومن معى ، فاسترحت كل الراحة .

فلما كان اليوم التالى انكفأت إلى قصر الدوق الذى وجدته فى القداس ، ثم رحت أستفسر عن ابن سنت بول[١٤٩] حتى لقيته وقابلته وأبلغته تحيـة « جوتيير كويكسادا » الذى كان مرتبطاً بمبارزته وكنت قد رأيته وهو يركب البحر إلى بيت المقـدس ، وقد بعث إليه كلمة يقول له فيها إنه سوف يعود على جناح السرعة للوفاء بالتزامه وزكى نفسه للنغل ؛ فدنى منا الدوق وإذ سمع فحوى الرسالة قال مازحاً : « نعم ما فعل موزين جوتيير من ذهابه إلى القدس ثم اعتزامه العودة لقتـل رفيقه أو التغلب عليه ، وقد كان من الخير له أن يقوم بهذه الرحلة بعد المبارزة » ، ولقد قال الدوق كل هذا مازحاً ، وأخذ النغل منذ ذلك اليوم يوليني أعظم اهتمام حتى لـكأنني واحد من أقرب الناس إليه .

والنغل فارس رشيق ورجل شريف استطاع بفضل شجاعته الشخصية أن يتقدم على الـكثيرين غيره ممن يشأونه فى الأملاك ولـكنهم دونه احتراماً وتقديرا عند الدوق والدوقة وبقية السـيدات ، وقد جمع بين الروعة والشجاعة ، وأنعم عليه الدوق بوسام الأسطول الذهبي تقـديرا منه لفضـله واستقامته ، ولم يكن أحد ما حتى ذلك الحين — قاصرا كان أم غيره — قد نال هذا الوسام ، ولـكن حين رأى الدوق والمجلس ما عليه هـــذا الفارس من البسالة والرقة أجمعوا أمرهم على أن ينعموا به عليه ، ويقال إن النوط الذى يلبسه الآن هو الذى كان لورد « تريمويل » قد خسره بفراره فى أثناء القتال .

والعلج رائع فى شخصه وتركيبه ، رشيق القوام ، وهو رجل حصيف لبق ، يبلغ من العمر الخامسة والخمسين ، وإن كان نحيفاً أميل إلى الاصفرار ، وفى وجهه ندبة من جرح أصابه فى القتال حين وقع فى الأسر ، ثم أطلق سراحه بعد دفع دية كبيرة دفعتها الوصية أم دوق برجنديا التى يقال إنها تحبه حبا عظيما .

وقد أرانى هذا الفارس قصر الدوق وللدينة وكل شىء بها ، بيد أنه لا يوجد ثم شىء يفوق فى جلاله رجال الدوق والدوقة وأسلوب الحياة التى يتقلبون فى مطارفها ، وهى أفخم حياة تسنّى لى رؤيتها ، وفى ذلك الحين كان الناس الآتية أسماؤهم يعيشون فى القصر لمنادمة دوق سانت بول القوى وزوجته وأتباعه ، وكونت « استامب » وهو يماثل الدوق فى قوته مع أتباعه ، وأميرة « نفارة » ابنة أخى الدوق التى تقيم فى مسكن خاص بها ، وكذلك أخوها « جون كليفيز » وسيدان آخران اسمهما «شارنى» و « كريكى » مع زوجتيهما وكثير من فرسان أهل بيت الدوق . ويقال إن هناك مائتى آنسة من أوانس الشرف يقمن دائماً بخدمة الدوقة ، وينام جميعهن ويأكلن فى القصر كما يفعل الفرسان الذين ليست لهم أماكن إقامة مستقلة ، ويدفع الدوق من جيبه الخاص جميع النفقات كما لو كان يدفع نفقته الخاصة ، وهو يبدو لى من هذه الناحية عكس دوق ميلانو الذى ينزل جميع الرجال فى الحقل ولا يسمح لأحد بالمعيشة معه ، على حين أن الدوق يُسكن الجميع معه ولا يسمح لأحد بالمعيشة خارج قصره ، غير أن دوق برجنديا يستطيع استبقاء فرسانه فى القصر لأنه يتمتع بالسلام والهدوء ، وقل أن يتمكن المرء من وصف جموع الناس

وتهذيبهم وزينتهم ، فهناك سلسلة دائمة من المبارزات وكل ما يدخل البهجة على القلوب .

أما الدوق فرجل عظامى ذو عرق ضارب فى الفضيلة ، رائع الطلعة لبق ، وهو طويل القامة وإن يكن نحيفاً بعض الشيء ، خفيف الحركة ، ذو نجدة ومروءة ، كما أن الدوقة بالغة الثراء جداً ، محبوبة كل الحب من رعاياها ولا يشأوها فى حبهم إياها سوى زوجها ، ولم يرزقا من الذرية غـير ولد واحد(١٥٠) .

• • •

ولقد أبصرت فى البلاط رجلين كفيفين من قشتالة يضربان على القيثار ، ثم صادفتهما فيما بعد فى قشتالة ، وحدث فى أثناء إقامتى هناك أن بعث الدوق إلىّ عدة مرات مستفسراً منى عن الأماكن التى تهيأت لى زيارتها ، وكرر من الأسئلة ما أفصح عن رغبته فى أن يكون إلمامه تاماً بكل ما رأيت وفعلت ، وأظهر سروراً كبيراً بما أفضيت به إليه ، مفهما إياى شوقه الملحّ إلى غزو بيت المقدس ، وهذا على الأقل هو ما بدا لى من استفساراته ، وسألنى عما إذا كنت راغباً فى متابعة رحلتى أم أننى يرضينى البقاء فى بلاطه ، فأجبته أنه لا بدلي — وقد زرت بلده وباريس — من العودة سريعاً إلى قشتالة ، إذ بلغ مسمعى أن مولاى الملك أراد أن يحارب المسلمين بنفسه . ومن ثم اهتم الدوق بالأمر اهتماماً جدياً ، وأصدر أمره إلى النفل سنت بول بمرافقتى فى تجوالى ، فإذا رغبت فى الرحيل كان عليه مصاحبتى فى ربوع أملاكه لحراستى ، وزاد على ذلك بأنه مستعد لتزويدى بكتب توصية منه إذا كانت ثمة ضرورة لذلك ،

فسرني هذا منه كل السرور ؛ ثم توجهنا بعدئذ لمشاهدة المدينة وما هي عليه من الضخامة والثراء والقصور الجميلة التي يقوم في وسطها قصر البلدية حيث ينعقد المجلس ، وليس لهذا القصر ضريب أبداً ؛ كذلك مضينا إلى خارج المدينة لرؤية بعض الإقطاعات التي يملكها الدوق والتي يمضي إليها التماساً للهو ، وكان من بينها ضيعة بها منزل رائع جداً تحوطه حديقة كبيرة يبلغ محيط دائرتها قرابة فرسخ ، تمرح فيها الغزلان والحيوانات البرية .

* * *

غادرت بروكسل في رفقة أحد الفرسان واسمه كابتن « سُلويس » الذي أوصاه بي النغل ، وبلغنا عشية هذا اليوم مدينة لم تكن بها قطرة واحدة من النبيذ ، فاقترحت أن نتابع سفرنا إلى « بروجس » إذ لابد أننا واجدون بها بعض ما نريد ، بيد أن الفارس أخبرني أن سيدة من ذوي قرباه هي رئيسة أحد الأديرة المجاورة ، وأنه مرسل إليها سائلا إياها عما إذا كان لديها شيء من الخمر ، وفعلا أنفذ رسولا إليها ، فأجابت الديرانية بأن لديها من النبيذ وفرةً بالغة ، ولكنها لن تمده به إلا إذا وفد عليها لتناول العشاء وهو ورفيقه الفارس الإسباني ، ومن ثم ذهبنا إليها فأكرمت وفادتنا غاية الإكرام ورحبت بنا أعظم الترحيب ، فلما فرغنا من العشاء أخبرتني أنها كانت قد حجت إلى « سنتياجو » ، ولقيت حفاوة كريمة جداً من القشتاليين ولا تدري كيف تجازيهم عنها ، وإذ ذاك التمست مني البقاء بضعة أيام عندها للاستجمام بعد ما كابدته من عناء الرحلة ومشقة السفر ، وأنبأتني أنها سوف تعاملني كما

كما لو كنت ابنها ، فشكرت لها كريم منّتها واستأذنتُها فى الرحيل ، ثم خرجنا بعدئذ قاصدين « بروجس » التى دخلناها مع الغسق ونزلنا فى فندق الملاك ، وحينداك فارقنى كابتن « سلويس » ورحل إلى طيّته بعد أن دعانى لزيارته فى بلده ومشاركته سروره ، فوعدته الوفاء بما سأل .

. . .

الفصل الرابع والعشرون

بروجس . أراس . غنت .
انتورب .

. . .

بروجس [١٥١] مدينة كبيرة بالغة الثراء ، وهى إحدى أسواق العالم الكبرى ، ويقال إن المدينتين اللتين تتنازعان السيادة فيما بينهما هما «بروجس» فى فلاندرز بالغرب و «البندقية» فى الشرق ، ومع ذلك فيبدو لى — ويتفق معى الكثيرون فى ذلك — أن النشاط التجارى فى بروجس أعظم مما هو عليه فى البندقية ، ومرجع هذا الأمر أنه لا يوجد فى الغرب بأجمعه مركز تجارى نشيط سوى ما فى بروجس رغم ممارسة انجلترا نفس التجارة ، ويقول الناس إنه يحدث فى بعض الأحيان أن يجاوز عدد السفن المقلعة من ميناء بروجس سبعمائة سفينة فى اليوم الواحد ، أما الحال فى البندقية فعلى العكس من ذلك إذ لا يصل العدد إلى مثل هذه الضخامة ، لأن العمل فى التجارة بالميناء قاصر على أهلها .

وتقع بروجس فى إقليم كونتية فلاندرز وهى أهم مدنها ، هذا إلى ازدحامها بالسكان ، وهى ذات شوارع رائعة وبيوت جميلة ، كما تحفل بالكنائس والأديرة والخانات الفخمة ، وتتمتع بنظام حكومى دقيق متقن سواء فى الناحية القضائية أو سواها ، وترد إليها البضائع من انجلترا وألمانيا وبرابانت وهولندة وزيلند وبرجنديا وبيكاردى والجزء الأكبر من فرنسا ، وكأنها ميناء هذه

الأقطار جميعها ، والسوق الذى ترسل إليه كل منها بضائعها لبيعها للآخرين نظراً لوفرتهم فى بلادهم .

وسكان « بروجس » أهل جد وعمل ، ولعل مرجع ذلك جدب أرضهم لقلة إنتاجها من الحبوب ، ولا يوجد بها النبيذ ولا الماء الصالح للشرب ولا الفاكهة ، ومن ثم فإن منتجات العالم بأجمعه ترد إليها بوفرة كبيرة ، كما تصدر منها تجارات الدنيا من الأقمشة الصوفية وملابس « أراس » وشتى أنواع السجاد والبسط وسواها من ضرورات الحياة التى يتوفر منها بها الشىء الكثير ، كما يقوم هناك بناء ضخم فوق مجرى كبير من المياه يتدفق من البحر عند « سلويز »[١٥٢] ، يسمونه « لاهاله »[١٥٣] التى تفرغ بها جميع البضائع على الصورة التالية :

ذلك أن البحر فى هذه النواحى من الغرب ينحدر بشدة ، وبين بروجس وسلويز (والمسافة بينهما فرسخان ونصف فرسخ) قناة كبيرة تشبه النهر فى عمقها ، كما توجد فى أمكنة متفرقة بوابات مثل الطواحين الهوائية ، فإذا فتحت اندفع خلالها الماء ، وإن أغلقت حيل بينه وبين التدفق ، فإذا كان وقت المدّ شحنت السفن وأبحرت بما عليها من « سلويز » ، فإن بلغ الماء ذروة ارتفاعه سدّوا العيون ، وحينذاك تعود المراكب التى أفرغت ما عليها فحملت جديداً ، وقد استغل الأهالى المياه لحمل كميات ضخمة من البضائع ما بين صادرة وواردة ، ولو كانوا يستعملون الدواب لنقلها لكلفهم ذلك أعباء جمة وكبدهم مشقة عظمى .

وتتمتع مدينة بروجس هذه بدخل كبير جدا ، وأهلها على جانب كبير من الثراء ، وقد ثاروا أخيرا ضد الدوق[١٥٤] وقت وجوده بالمدينة مما اضطره

إلى الهرب مع زوجته وحشمه ، ثم أخذ يستعد للقتال ويهيء نفسه له ، وشن حرباً على المدينة واحتلها بالقوة ، وانتقم منها أفظع انتقام فى الأرواح والأملاك ، ولقد رأيت بعينى رأس كثيرا من المشانق العالية حول « بروجس » حتى « سلويز » وعليها رءوس الهلكى .

وأهالى هذه الناحية شديدو التأنق فى مظهرهم ، مسرفون فى طعامهم وما كلهم ، مبالغون فى الأخذ بالكماليات ، ويقال إن نساء هاله الساقطات يحصلن على إذن يسمح لأى فرد بالذهاب إليهن وقضاء الليل معهن ، ويمكن لمن يرتاد هذه الناحية أن يُحضر أى امرأة يختارها ويضاجعها على ألاّ يحاول رؤيتها أو التعرف على هويتها وإلاّ كان الموت نصيبه ، ولا يبالى القوم باستحمام النساء والرجال معا ، وينظرون إلى ذلك نظرة شريفة أشبه ما تكون بنظرتنا إلى ذهابهم معا إلى الكنيسة ، وليس من شك فى أن للثروة اعتبارها وللكماليات سيادتها ، ومن ثم فليس فيها مكان للفقير الذى لا يستطيع الإقامة بها ، أما من توفّر لديه المال وشاء صرفه فسيجد فى هذه المدينة وحدها كل ما أنتجه العالم ، فلقد رأيت بها فاكهة البرتقال والليمون الواردين من قشتالة حتى لتحسبهما كأنما قد قطفتا للحظتها من على الأغصان ، وشاهدت بها الفواكه والنبيذ الواردين من اليونان بالكثرة التى تتوافران بها فى ذلك القطر ، كما شاهدت الحلوى والتوابل من الإسكندرية وجميع بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط حتى ليخيل للمرء أنه بتلك البلاد ، ورأيت الفراء الوارد من البحر الأسود ، كذلك كانت هنا إيطاليا بكل ما لديها من المنسوجات والحرير والأسلحة وشتى أنواع الصناعة القائمة بها ، والواقع أنه ليس ثم بلد فى العالم

لا توجد منتجاته فى بروجس ، ومع ذلك كله فقد كانت مجاعة كبرى فى السنة التى زرتها خلالها .

* * *

رحلت بعدئذ لمشاهدة « سلويز »[١٥٥] — ميناء بروجس البحرى — وأقمت مع ربّان الباخرة ، وحدث أن كنت ذات يوم فى الكنيسة أسمع القداس حين اقتربت منى امرأة وقالت إن لديها أمراً يهمنى وتريد الإفضاء به إلىّ على انفراد ، ثم سارت بى إلى دارها المجاورة للكنيسة ، وقدّمت لى فتاتين صغيرتين وسألتنى أيهما ترضينى ، فاستبدّت بى الدهشة من ذلك وسألتها كيف سوّلت لها نفسها أن تسلك هذا المسلك معى ، فأنبأتنى أنها تكاد تموت جوعاً وقد مضت عليها عدة أيام لم تجد ما تقتات به سوى قليل من السمك الصغير ، كما أن الفتاتين أوشكتا على الموت جوعاً وأنهما عذراوتان ، فأخذت من ثلاثتهن عهداً ألاّ يحاولن ثانية هذه المحاولة مع أحد ما ، وذكرت لهن أن السنة الجديدة ستكون أحسن طالعاً وتجلب معها الخير ، وأن ما سأعطيه لهن سوف يكفى لإعالتهن ، ثم ناولت المرأة ستة دوكات بندقية وغادرتهن .

ولقد كانت المجاعة أسوأ مجاعة عُرِفَت حتى ذلك الوقت ، ثم جاء فى أعقابها طاعون جامح خرّب كثيرا من النواحى .

* * *

بقيت مع الربان هناك مدة يومين شاهدت خلالها المكان الذى تبلغ بيوته أكثر من خمسة عشر ألفاً ، وهو مكان شديد المناعة بفضل السور القوى المحيط به والخندق المملوء بالمياه ، كما يزدحم بالأجانب

وبضائعهم حتى لتضيق البيوت على كثرتها عن إيوائهم جميعاً . ولقد قابلت هنا كثيرا من القشتاليين وغيرهم من الجنسيات الأخرى التى أعرفها .

ويقال إنه من العسير جدا دخول ميناء هذه المدينة من جراء الشواطىء الرملية ، لكن لا تكاد تنجح السفينة فى اجتيازها حتى تصبح فى غاية الأمان ، أما حين ينحسر الماء فتبقى راسية على الرمال الناعمة العميقة كأنما هى فى بحر من الماء .

ويبدو المرفأ لناظره كما لو أن نصف العالم قد حمل سلاحه لمهاجمة المدينة حيث يوجد بها أسطول ضخم من السفن من شتى الأنواع قد ألقت مراسيها فى هذه الناحية ، فمنها النازحات والفرقاطات من ألمانيا ، والشوانى من إيطاليا ، والطرادات والسفن ذات الأبراج وسواها من ضروب المراكب الأخرى من مختلف الأقطار ، وإذا كان بين بعض أصحابها والبعض الآخر عداوات فلا مجال لإظهارها هنا براً أو بحرا ، إذ يسير كل فرد فى سبيله ولا يعبأ بغير عمله ، أما إذا نهج أحدهم نهجاً يخالف هذه القاعدة أنزلوا به أشد أنواع العقاب ، ويمكن للمرء أن يرى فى هذا المكان رجالا من جميع الشعوب وقد جلسوا إلى مائدة واحدة يتناولون طعامهم دون خصام أو عداوة . ولقد بقيت فى « سلويز » مدة يومين فى صحبة الربان عدت بعدهما إلى بروجس .

أخذت طريقى بعدئذ عبر « بيكاردى » إلى مدينة اسمها «أراس» ، وهى تابعة لدوق برجنديا ، وتمتاز بروعة مظهرها ، كما أنها مفرطة الثراء لا سيما بفضل منسوجاتها وسجادها المختلف الأنواع ؛ ورغم صنع هذه فى أماكن أخرى غيرها إلا أنه لاجدال فى أن ما يُصنع منها فى « أراس » يفضلها جميعا .

* * *

ولقد جرت هنا مفاوضات الصلح بين ملك فرنسا ودوق برجنديا ، وبقيت بها ثلاثة أيام واعتزمت المضيّ منها إلى إقليم « نرمنديا » لمشاهدة « روان » ثم إلى باريس ، بيْدَ أن وطأة الطاعون بلغت من الشدة حدا أرغمتني على طريق والعودة إلى « بروجس » فى فلاندرز ، وكان لى مبلغ من المال بعض صيارفتها فمضيت إليهم للمطالبة به ، لكننى وجدت جميع التجار غادروها إلى « أنتورب » حيث كان السوق منعقداً ، فبقيت فى « بروجس » يوماً واحدا رحلت بعده ، ثم قدّر لى بعد يومين أن أبلغ « غنت » الواقعة هى الأخرى فى كونتية فلاندرز .

. . .

و « غنت » واحدة من أكبر مدن العالم المسيحى ، وهى محصنة أعظم التحصين من كل ناحية رغم وقوعها فى منطقة سهلية ، وذلك لإحاطتها بسور قويّ وفرة الخنادق التى يستحيل معها مهاجمتها إلاّ من مسافة قاصية ، هذا بالإضافة إلى كثرة الأسلحة والمدافع بها ، ويقولون إن القانون يحتم على كل فرد من سكانها حمل سلاحه ورمحه ، وأنه يمكن تعبئة ستين ألفاً من المشاة للقتال ، وسواء أكان هذا الخبر صادقاً أم موضوعاً فالثابت أن بها من المئونة ما يكفيها ست سنوات ، وهى تتجدد كل عام ؛ وحين كنت بها كان أهلها فى قتال ضد حاكمهم الدوق[١٥٦] الذى زحف عليهم وحاصر المدينة التى ظلت تقاومه فترة غير قصيرة من الوقت ، لكنه نجح فى الاستيلاء عليها أخيرا ، وانتقم منها أشدّ انتقام ، حتى إن الأهالى راحوا يفدون إليه — كما قيل — عرايا إلاّ من فضلة قميص يسألونه العفو عنهم ، كما أذعنوا لأمور كثيرة إظهاراً منهم لخضوعهم له ، وحينذاك فحسب رحل عنها ، غير أن هذا الاستيلاء كلّف الدوق جهداً طائلا ، فقد فقد بضاعته وهلك فيه أحد أبنائه ، كذلك هلك هنا أيضا

الأخ « جاك دى لاين » الذى حارب من قبل فى قشتالة ، وكان مصرعه من جرح أصابه من شظية مدفع .

ومدينة «غنت» كبيرة جداً آهلة بالسكان عظيمة الثروة بفضل تجارتها ، وذلك لوصول مياه البحر إلى أسوارها مما يساعد كثيراً من السفن على دخولها ، ويمكن القول أكثر من هذا فما يتعلق بها لكننى لا أميل للإفاضة كثيرا عنها وتكلف المشقة بالكتابة الطويلة .

سافرت من غنت وقدمت إلى «أنتوب» الواقعة فى « برابانت» والتابعة لدوق برجنديا ، وهى مدينة كبيرة بها ما يقرب من ستة آلاف مسكن ، ولها سور رائع وحصن وخندق ، وشوارعها ودورها جميلة جدا ، وبها ميناء رائع ، كما تدخل السفن المدينة عبر أحد الجداول ، مما يستطاع معه ربط الزوارق إلى أسوار المدينة ، كما أن السوق[١٥٧] الذى يعقد هنا هو أعظم أسواق العالم طرا ، وعلى من شاء أن يرى المسيحية كلها أو الجانب الأكبر منها مجتمعاً فى مكان واحد فهو مستطيع ذلك هنا .

ويحضر دوق برجنديا على الدوام إلى السوق الذى يرجع إليه الفضل فيما يتحلى به بلاطه من بهاء وروعة ، إذ يفد عليه أقوام من شعوب جمة متباينة كالألمان المجاورين له والإنجليز ، كما يغشاه الفرنسيون فى جموع كثيفة يشترون منه ويبيعون فيه السلع الكثيرة ، أما المجريون والبروسيون فيملؤون السوق بخيولهم ، كذلك يطالع المرء هنا وفود الإيطاليين ، ولقد رأيت بنفسى سفن وشوانى البندقية وفلورنسا وجنوه ، أما الإسبان فهم كثر ، بل لعلهم أكثر فى « أنتورب » منهم فى أى مكان آخر ، ولقد قابلت تجاراً من « بيرجوس »

من المستقرين فى « بروجس » كما صادفت فى المدينة أيضاً «جوان دى موريللو» أحد خدم ملكنا .

وليس لأنتورب — كسوق تجارى — ندّ ولا ضريب ، حيث يتجمع بها كل الثروات ووسائل التسلية ، ويتسم نظام المرور فيها بالروعة ، وتباع الصور من شتى الأصناف فى دير القديس فرنسيس ، وأقمشة «أراس» فى كنيسة القديس يوحنا ، ويقوم أحد أديرة الدومنيكان بالتعامل فى جميع أنواع المصنوعات الذهبية ، ومن ثم فإن السلع المختلفة موزّعة بين الأديرة والكنائس ، ويباع البعض منها فى الشوارع ؛ ويوجد خارج المدينة عند إحدى بواباتها شارع كبير يبيع القوم فيها خيول الجرّ وجياد السباق وغيرها من أنواع الأحصنة ، وهذا منظر فاتن ؛ والواقع أنه ليس ثم شىء يشتاقه الإنسان دون أن يراه هنا بوفرة عظيمة ، ولست أعرف كيف أصف سوقاً هائلا مثل هذا السوق ، فلقد رأيت الكثير غيره فى «جنيف» بسافوى ، وفى فرانكفورت بألمانيا ، وفى «مدينا» بقشتالة ، لكنها كلها مجتمعة لا تقاس بسوق أنتورب .

* * *

الفصل الخامس والعشرون

لوفان . بوالى ديك . فرانكفورت . كولونيا . مينز
أسر الرحالة وإطلاقهم . طيفور يفقد سيفه .
بازيل . مبارزة فى شافهاوزن .
كبار . نومبورج . براج .
حاكم ميلسين

. . .

سافرت من «أنتورب» وجئت إلى مدينة «لوفان» الواقعة فى «برابانت» وهى مدينة كبيرة جداً لكنها غير آهلة بالسكان بصورة ظاهرة ، وتوجد بها جامعة لدراسة جميع العلوم وإن قالوا إن دراسة اللاهوت تحظى بنصيب أوفر مما تحظى به سواها من الدراسات الأخرى ، ورأيت بها ابنين غير شرعيين من أبناء دوق برجنديا يدرسان فيها الفلسفة ، وقد أصبح أحدهما فيما بعد فارساً حربياً صنديداً ثم لقى مصرعه كما ذكرت آنفاً ـ فى حصار غنت .

غادرت « لوفان » وجئت إلى « بوا ـ لى ـ ديك » التى كنت بها من قبل ، ثم سافرت منها إلى « نيميجين » التابعة ـ كما قلت من قبل ـ لدوقية « جيلدرز » ، ثم بارحتها إلى دوقية « كليفس » وبلغت مدينة فرانكفورت وقت انعقاد السوق الكبير وإن لم يقف على قدم المساواة مع سوق أنتورب ، على أن المدينة مكتظة بكل أنواع الثروة ، وبها أربعة آلاف نسمة ، ويرجع الفضل إلى هذا السوق فيما تنعم به المدينة من الثروة ، وهى واقعة فى وسط

ألمانيا ، كما أنها فى نظرى أروع ما تكون لما بها من الحيوانات ، وقد مكثت بها ثلاثة أيام انكفأت بعدها عائداً إلى كولونيا فزرت رئيس أساقفتها وفاءاً بوعدى له ، فلقينى أكرم لقاء .

والتقيت فى كولونيا بسفارة كانت عائدة من بازيل إلى دوق برجنديا ، كما صادفتُ ثلةً طيبة من الرجال أرسلها « المجلس » إلى الدوق رجاء حمله على مساندة المجمع والوقوف إلى جانبه وصرفه عن ولائه للبابا وتأييده إياه ، وكان فى السفارة ثلاثة من رجال الدين : أحدهم أسقف «فيزو» بالبرتغال ، وثانيهم ألمانى الجنس ، أما ثالثهم فهو « لدفيجو » أعظم أدباء عصره وحامل دواة البابا ، وقد حدث أثناء تعرّفى بأسقف « فيزو » الذى قابلته فى جزيرة «خيوس»[١٥٨] باليونان ـ حيث كان ذاهباً لمقابلة إمبراطور القسطنطينية ـ أن اضطررت للعودة فى صحبته حتى بازل ، فلما جئنا إلى «مينز » بعث السفراء فى الحال إلى « ستيفن» دوق بافاريا[١٥٩] يطلبون منه عهد أمان فى الطريق ، ذلك لأن الدوق كان معلماً لابن أخيه دوق « لدويج » وكان سيد تلك الجهة كلها ، والسبب فى ذلك أن الدوق كان من مؤيدى البابا « يوجين » ، فبادر بإرسال كتاب الأمان فى الوقت المناسب ، ورحلنا عن مينز ، لكن ما كدنا نبعد عنها بثلاثة فراسخ حتى هاجمنا مائتا خيال أسروا السفراء وكنت من بين الأسرى ، وحملونا إلى حصن بأحد الجبال اسمه حصن « ليفانتين » الذى عرف فيما بعد باسم « لوبنهايم » ، وكان هذا عملا فاحش السوء ، بالغاً المنتهى فى قلة الذوق وإن لم يمسنى أحد منهم بضرّ إذ رأونى فارساً ، ولكنهم بعثوا فى طلب فارس أخذ منى سيفى ومهمازى ثم أبقونا فى ربقة الأسر خمسة عشر يوماً لكن لم يكن هناك خوف من قلة الطعام ، إذ كانوا يحملوننا

بالليل وعند انبلاج النهار وكذلك طول ساعات اليوم على الأكل والشرب مع حراسنا جرياً على مألوف عاداتهم مما لم يكن لها مثيل عندنا ، مما أدى إلى مرضنا واشتداد العلة بنا ، فأرسلت فى الحال الدوق « ستيفن » أخبره عن أكون ، وعن طريق مجيء وطلبت إليه إطلاق سراحى ، فاستجاب لى بإرساله أحد أبناء جلدته ليخلصنى من الأسر ، فلما رُدّت إلىّ حريتى رغبت فى رؤية رفاق ومحادثتهم ، لكن القوم رفضوا طلبى هذا لأنهم كانوا قد أبقوا كلا منا على انفراد عن الآخرين .

لم أكد أخرج من سجن القلعة حتى ركبتُ مع جماعتى وذهبت إلى دوق « ستيفن » الذى كان مقيما فى بلدةٍ تبعد عن هناك فرسخاً واحداً ، وحادثته طالباً إليه إطلاق سراح رفقتى ، وأخبرته أنه إذا لم يطلقهم فى الحال فلن يقف الأمر عند حدّ ضياع بضائعه بل وأيضاً أملاك ابن أخيه التى كانت فى حوزته .

وبينما كنت موجوداً هناك جاءت الأخبار بثورة شعب ابن أخيه ضد الدوق قائلين إن الدوق دنّس شرف ابن أخيه ؛ وأنه نكث عهد الأمان الذى منحه ، وحينذاك سألنى الدوق أن أعود إلى السفراء فى محاولةٍ منه للصلح بينه وبينهم ، قائلا إنه شديد الرغبة فى إطلاق سراحهم على ألا يرفعوا شكواهم إلى المجلس أو إلى الإمبراطور ، كذلك بعث إلى الرسل الذين وفدوا عليه مفضياً إليهم بإطلاقه قيد السفراء ورعايته إياهم كل المراعاة ، فرحلت حينئذ مع أحد أقاربه وعدت إلى المكان المسجون به السفراء وأفضيت إليهم بجلية الخبر ، فسروا سروراً عظيما بما فعلته ، وسرعان ما استجابوا إلى الشروط التى طلبها الدوق فأطلق سراحهم واستردوا جميع ما أخذ منهم ولم يفقدوا شيئاً ما ، لكن الذى

أذهلنى هو أن القوم تفقّدوا سيفى الذى كانوا قد سلبونى إياه فلم يقفوا له على أثر ، فقدّموا لى بديلا عنه واحداً من سيوف الدوق ، بيد أننى رفضته ازدراءً به ، مقسماً اليمين ألاّ أحمل غير سيفى ، وأن لا بد أن يدفع بلد الدوق الثمن غالياً للإهانة التى لحقتنى رغم كتاب عهده بالأمان .

حينذاك رحلنا أنا والسفراء عبر أراضى دوق « لدويج » ، حيث لقينا من الأهالى غاية الاحترام ، وأبوا أن نتحمل دفع ثمن شىء ما ، لكن بينما كنا على وشك مغادرة أملاكه جاءنى سيد من رجالات الدوق على صهوة جواده ملتمساً منى أن أنسى غضبى لأن الأمر لم يكن موجهاً ضدّى بل ضد السفراء ، ثم جاءونى بسيفى وأخبرونى أن الدوق تكلف فى العثور عليه مشقة أعظم من مشقته فيما لو كان يحارب لاحتلال إحدى المدن ، وعلى هذا غادرنا أرض هذين السيدين : العم وابن أخيه ، وعدنا إلى « ستراسبورج » ، وتابعنا سفرتنا آخذين معنا من كل مدينة حرساً مسلحاً لحمايتنا نظراً للأحزاب المتنازعة ، وللخصومات التى بين البابا والمجلس ، وانكفأنا إلى « بازيل » حيث وجدنا للمرة الثانية سفراء من لدن مولانا الملك ، وهم الذين رأيتهم من قبل .

• • •

ولما رحلت من بازل فى الوقت المحدّد وصلت إلى مدينة يسمونها « شافهوزن » تقع على الراين الأعلى ، ورغم صغرها إلا أنها جميلة وبالغة النظافة ، وكانت بها إذ ذاك مبارزة عظيمة رتبها الأمراء على الصورة التالية : هى أن يجتمع جماعة معينة من الفرسان ويدونون فى قائمةٍ أسماء جميع نبلاء تلك الناحية ، مع تكليف أحد الرسامين بنقش رنك كل واحد منهم وهو يحمل من دار لأخرى ومعه الدرع ، ويعلنون يوماً معيناً من الأيام ينبغى على كل

شريف الحضور فيه بنفسه إلى المكان المتفق عليه وهو فى كامل سلاحه ومخيوله ليساهم فى المبارزة ، كذلك يذيعون هذا الخبر على كل كبار سيدات تلك النواحى ، وبعدئذ يجتمع النبلاء والسيدات ، فإذا تكامل عقدهم جميعاً انتحى كبارهم فى السن ناحية مع بعض المتقدمات فى العمر وراحوا يتشاورون فيما بينهم ، ويستفسرون عما إذا كان أحد النبلاء قد ارتكب خطأ أو سلك مسلكا غير لائق ، وهل هناك ثم واحد منهم قد اغتصب سيدة أو آنسة أو أساء السيرة معها ، أو سلب حقاً لضعيف أو لشخص لا حامى له ، أو حقر نفسه طمعاً فى مال فتزوج امرأة من طبقة أدنى من طبقته ، أو ارتكب عملاً ينزل من مكانته ، وبذلك يستعرضون أخطاء كل واحد ، فإن وجدوا من يدينونه استدعوا إليهم جماعة معينة من الفرسان الذين وردت أسماؤهم فى القائمة وكلفوهم بالهجوم على المذنب وضربه بالعصى وسوقه أمامهم، فإذا تمّ ذلك تقدم الفرسان المسنّون والسيدات من المذنب وأخبروه عن علة ضربه ، ثم ساروا به وأذنوا له بعدئذ باتخاذ مكانه مع بقية الأشراف فى الحلقة كما لو كان قد تطهر من ذنبه وكفّر عن جرمه ، أما إذا رفض المذنب الحضور حكموا عليه حكماً ضاعفوا له به العقاب ، فإن أصرّ على عناده فى المرة الثالثة أخرجوه من طبقة الأشراف .

* * *

وفى كل هذه النواحى يستطيع الجميع المبارزة والاشتراك فى رياضات الفرسان ، أما النبلاء ذوو الأحساب العريقة المعروفة فهم وحدهم الذين يساهمون فى هذه المبارزة ، وتلك عاده طيبة جديرة بالتقدير لأنها تجعل الناس يعرفون من يحق له أن يكون فارساً ذا أصل عريق ، ومن أذنبوا بارتكابهم أفعال

السوء التي تجللهم بالعار ، ولقد أمرت أن أشترك مع النبلاء الآخرين وأشاهد ملاهيهم .

بقيت في «شافهوزن» يومين ثم سافرت قاصداً «كونستانس» التي كان قد عقد بها مجمع ديني[١٦٠] للقضاء على الخلافات الموجودة في الكنيسة ، وحضره السفيران القشتاليان «فرنند بيريز دي أيلا» و «دي لوس دونسيوس» ، وهنا لقيت كردينال «سان بدرو» الذي كان بها ، وأقمت معه ثمانية أيام ممتعة ، نعمت خلالها برؤية المدينة الجميلة الجديرة بالمشاهدة لما اشتملت عليه من المنازل والشوارع والكنائس والأديرة والخانات الرائعة والنزل ، ولا بد أنها كانت على الدوام بلدا طيباً ، ثم ازدادت طيباً منذ أن عقد بها « المجلس » .

وتوجد بها بحيرة عذبة تصل مياهها إلى الأسوار ، وهي نابعة من جبال الألب ، ويبلغ طولها خمسة أو ستة فراسخ ومثلها عرضاً ، وهي شديدة العمق وتستطيع كثير من السفن الإبحار فيها ، وتكثر بها الأسماك التي يقال إن لحمها من أشهى لحوم حيوان البحر مذاقا ، كما يتناثر فيها عدد من الجزر الصغيرة حيث توجد الصوامع إلى جانب الأديرة ، وتأتي كميات ضخمة من المئونة عبر هذه البحيرة التي يرجع الفضل إليها في رخاء المدينة ، ولقد شاهدت بها أجمل امرأة قُدِّر لي أن تكتحل عيني برؤيتها ، وبلغ جمالها حداً خالجني معه الشك في آدميتها ، ولو تسنى لها من الطيبة مثلما تسنى لها من الفتنة لكانت حور الجنة مثلها .

ولقد عقد المجمع الديني جلساته هنا في الكنيسة الكبرى ؛ وحدث أن مات في ذلك الوقت «فرناندو» ملك أراجون ، وأقيمت في هذه الكاتدرائية المآتم الكبرى اللائقة بمكانته ، وزينت الكنيسة كلها بصور أسلحة أراجون .

استأذنت الكردينال فى السفر ورحلت لمشاهدة الإمبراطور الذى كان مقيما إذ ذاك فى بوهيميا، واتخذت طريق عبر ألمانيا العليا حتى جئت إلى «أولم» التى نسميها «أولوس»، والتى تصنع بها المنسوجات القطنية المنسوبة إليها، وهى طيبة الموقع بديعة البناء، كما أنها إحدى المدن الإمبراطورية التى تشير إلى حق الإمبراطور فى القضاء وتناول الدخول وما سواهما. وعلى بعد نصف فرسخ منها يجرى الدانوب الذى يصب فى البحر الأسود.

ولقد غادرت «أولم» إلى مدينة «نوردن لنجن» التى كانت حينذاك فى صراع ضدّ أحد لوردات تلك الناحية، وزوّدنى القوم بحرس سار معى عبر هذا الإقليم الخطر، ووصلت بعدئذ إلى مدينة «تورمبرج»، فلقيت أناساً كثيرين منهم سفراء البابا وكردينال «سان كروزو»، كما صادفتُ جمعاً غفيراً من القسس من بينهم كردينال «سان سستو» الحالى المسمّى بالأخ «جوانددى تور كيمادا[١٦١]».

وكان من أنصار الجمع ومؤيّديه كاردينال «أرليس» وكثيرون غيره من القساوسة، منهم المعلم «جوان دى سيجوفيا» أستاذ اللاهوت؛ أما من جانب الإمبراطور فهناك «كاسبر شليك»[١٦٢] نائب المستشار، وكثير من الأمراء وأهل العلم، وقد اضطررت للإقامة هناك حتى أنهى مجلس «الديت» اجتماعاته واستعد القوم للرحيل للسفر مع «كاسبر شليك» الذى كان فى طريقه لمقابلة الإمبراطور فى بوهيميا، ولولا ذلك لما كان فى استطاعتى السفر دون توقع خطر الهلاك، ولقد زكّان لديه القشتاليون الذين كانوا هناك، فرضى أن أكون فى معيته حيث قدم معه ابن أحد الكونتات واسمه «باتندورف»، وكنت قد تعرّفت عليه فى قشتالة أثناء الحروب ضد المسلمين

على حدود « جيان » ، وهو الذى دُشِّنَ فارساً فى « كامبل » ثم هرب إلى إسبانيا من أبيه حين أراد أن يجعل منه أسقفاً ، وكان له أخ أكبر منه ، غير أنه حين عودته إلى ألمانيا وجد أن أباه وأخاه قد ماتا فورث عنهما أملاكهما التى يبلغ إيجارها عشرين ألفاً من الدوكات ، ولقد لقيت من هذا الفارس عطفاً كبيراً مثل الذى لقيته من حاشية الإمبراطور .

أما مدينة « نورمبرج » فواحدة من أكبر مدن ألمانيا وأوفرها ثروة ، وهى قديمة جداً ويكاد تعداد سكانها يبلغ تعداد سكان طليطلة التى تدانيها في الحجم وتشبهها فى الموقع ، ويوجد بها كثير من أهل الحرف لا سيما المدّنون ، وهم يصنعون الملابس الحديدية التى تسمى باسمها ، كما توجد بها كنيسة وضع الإمبراطور شارلمان بها الآثار المقدسة التى جاء بها من الأرض المقدسة حينما أخذ بيت المقدس ، ولقد ذهبتُ مع الكردينال لمشاهدة هذه المخلفات وأطلعونى على الكثير منها ، ومن بينها حربة من الصلب تبلغ قدر متر فى الطول ، وذكروا لنا أنها نفس الحربة التى طعن بها السيد المسيح فى جنبه ، لكننى ذكرت لهم أننى رأيت الحربة الحقيقية فى القسطنطينية ؛ وأعتقد أنه لولا وجودى فى رفقة جماعة من كبار الرجالات لكنت فى خطر من الألمان لما قلته .

وهذه المدينة بالغة الثراء رغم وقوعها فى الداخل ، فهى ملآى بشتى ضروب البضائع . وحين فرغ السفراء من أعمالهم آب كل منهم إلى وطنه ، ومضيت مع الألمان إلى تخوم بوهيميا حتى بلدة اسمها « أجير » وهى التى خلع فيها الإمبراطور سجسموند على « كاسبار شليك » جميع الوظائف الكبرى وكانت بها زوجته أيضاً ، ولقد أقمنا فى تلك البلدة ستة أيام احتفى فى أثنائها

بزواج إحدى أخواته ، وكان بها كثيرون من ألمانيا وبوهيميا ، كما أقيم بها عديد من المبارزات والاحتفالات الكبرى .

• • •

غادرنا نورمبرج وأخذنا طريقنا عبر بوهيميا حتى بلغنا مدينة « براج » ، لكننا لم نستطع مقابلة الإمبراطور الذى كان قد سافر إلى « سيليزيا » على حدود بولندة ، حيث كان يشنّ الحرب على الملك البولندى .

وبراج مدينة موغلة فى القدم إلى جانب روعتها وثرائها ، رغم أنها أخذت فى التدهور منذ أن أصبح البوهيميون هراطقة ، ويبدو لى أنه لم يُقْضِ القضاء التام على الهرطقة ولم تستأصل شأفتها نظراً لوجود الجبال والمواقع الهامة التابعة « للتابوريين » ولقيام قلعة يسمونها قلعة « تابور » ، ولا يزال الأهالى سادرين فى غلوائهم وأخطائهم ، كما أن الجانب الأعظم من أهل المملكة يقفون إلى جانبهم لاسيما النساء نظراً لوجود مجتمع نسوى ، وإن كنت أعتقد أن ذلك إرضاء لشهواتهن الجنسية الدنيئة ، وهو أمر سمعته أيضاً .

وتنقسم براج إلى قسمين يسمى أحدهما ببراج القديمة والآخر ببراج الجديدة[١٦٤] ، ويجرى بين الاثنين نهر كبير عليه جسر يصل بينهما ، وبها جامعة ذائعة الصيت لما يدرس فيها من جميع العلوم لاسيما اللاهوت ، وقد بقينا فى براج يومين وغادرناها عبر بوهيميا حتى بلغنا أقصى حدودها ، ويقوم بين ألمانيا وبوهيميا سلسلة من الجبال الكثيفة الأشجار أشبه ما تكون بالجدار ، ولا يستطيع المرء عبورها راكبا أو راجلا إلاّ من مسالك خاصة .

وإذْ غادرنا بوهيميا دخلنا ألمانيا وبلغنا مدينة تابعة لأمير « ميسين » دوق سكسونيا[١٦٥] الذى تزوّج بأخت الإمبراطور فردريك ، وكان قد مضى

إذ ذاك قرابة أسبوعين منذ أن شرع فى محاربة الهراطقة البوهميين وأنزل بهم الهزيمة واستولى على غنائم كبيرة منهم ، وأسر منهم ألف شخص من بينهم مائة من النبلاء ، وقد استقبلنى هذا الدوق استقبالا كريما وحبانى بكثير من الرعاية ، وقد أقام معه بها « كاسبار شليك » ثلاثة أيام ؛ ثم رحلنا بعدئذ عبر ألمانيا وشاهدنا كثيرا من الأماكن والكنائس التى آلت إلى أطلال خربة دمّرها ملك بولندة إبّان محاربة الإمبراطور للبوهيميين ، ومن ثم كان لا بد له من وقف حركاته العدائية والزحف مباشرة ضد البولنديين .

الفصل السادس والعشرون

برسلاف . الامبراطور ألبرت الثانى . الحياة
فى البلاط . ملك بولندة . برسلاف
فى الشتاء .

. . .

بلغنا « برسلاف » قبل عيد الميلاد بثلاثة أيام ، وهى واقعة فى إقليم سيليزيا وتطل على أقصى تخوم ألمانيا ، ووجدنا بها الإمبراطور «ألبرت»(١٦٦) وفى صحبته كثير من الأدواق والكونتات وغيرهم من أعيان الرجال ، وكذلك القساوسة من ألمانيا والمجر وبوهيميا ، كما أرسل الأخ الأعظم رئيس الفرسان البروسيين فارساً من هؤلاء مع طائفة كبيرة من الجند ، وإلى جانب هذا كله صحب الإمبراطورَ عسكرٌ كثيف لأنه كان فى الحرب ، وكان فى حاجة إليهم لاشتباكه إذ ذاك فى قتال ضد عدو ضخم العدد بالغ الشجاعة ، بيد أننى علمت أن القتال لم يحل دون إقامة الاحتفالات أو المبارزات أو البرجاس أو حفلات العرس التى أعدها الإمبراطور لشعبه ، مما لم تعرقل استمرار القتال ، بل أعدّ لكل أمر عدته ، وكان تتويج الإمبراطور قد تم منذ أمد قريب جداً وشهدته جموع غفيرة من الناس ، فيهم السفراء الذين أوفدهم الملوك والأمراء والجمهوريات الإيطالية ، كما حضره أسقف « بيرجوس » بأمر من ملكنا ومولانا « دون جوان » الذى أبدى الإمبراطور نحوه أعظم الاحترام ، والواقع أنه كان أهلاً لذلك ، فإلى جانب كونه ممثلا للملك فإنه كان

رجلا نبيلا حصيفاً جليل المنزلة مبجل القدر ، كما كان هناك ممثلون لدوق برجنديا ودوق ميلان والبندقية وفلورنسا وجنوه ، وممثلون للبابا يوجين وملك أراجون ، وجاء الكثيرون منهم بالهدايا لاسيما البنادقة والفلورنسيين ، وكانت هدايا البندقية ـ على وجه الخصوص ـ أعظمها وأجلها .

ولقد تقبل الإمبراطور جميع الهدايا قبولا حسناً إلا هدايا البندقية فقد رفضها قائلا إنه لا يليق به أن يقبل شيئاً من شعب يعتزم قتاله ، وزاد على ذلك قوله فى حضرة الجميع أنه قد أقسم يميناً لا رجعة فيه ألا يقبل التاج الإمبراطورى وألا يأخذ دخوله حتى يرد البنادقة إلى الإمبراطورية ما سلبوه منها[١٦٧] ، وأنه سوف يتوج فى القبر المقدس حين يتم له استعادته إياه ، فعمت الفرحة الشديدة جميع من سمعوا هـذا اليمين ، غير البنادقة الذين رحلوا ساعة سماعهم إياه .

. . .

ولقد قدمت للإمبراطور — هذا اليوم — احتراماتى وأنا فى جماعة من القشتاليين والألمان وفى صحبة نبيلين سبق أن قابلتهما فى بيت المقدس ، وفارس « باتندورف » الذى رافقته فى الرحلة من قبل ، ولقينى الإمبراطور أحسن لقاء وأحاطنى بمظاهر التشريف ، واحتفل فى هذا اليوم بزواج كونتة أرملة من أحد فرسان البلاط ، وتبارز مع مركيز « براند مبرج » . وفى إحدى جولات هذه المبارزة لم يكن معتلياً صهوة فرسه إلا أنه برشاقة امتطاه ، وألقى بخوذته جانباً ووضع على رأسه قبعة محلاة بمشبك غالى الثمن ، ثم اقترب من العروس مقدماً إليها القبعة والمشبك ، ثم أخذها من يدها وسار بها إلى القصر وحوله كوكبة من النبلاء وكبار الرجال ، ومضى الجميع يتناولون العشاء حين

حل المساء ، فجلست السيدات وحدهن على انفراد ، أما العروس فقد اتخذت مجلسها بين السادة الأشراف ، أما مائدة الإمبراطور فلم يجلس إليها سوى ثلاثة هم : الإمبراطور نفسه وفارس بروسيا وأنا ، واستمرت الوليمة حتى بعد منتصف الليل بساعة ، ثم بدأ الرقص الذى استمر حتى الفجر .

كان الإمبراطور رجلا ذا نزعة طيبة ، كريم النفس ، ظريف الشخصية ، سمح الوجه رغم أنه كان ذا هيئة غير مألوفة ، فقد كان لونه أميل للسمرة الشديدة حتى إن الألمان كانوا يمزحون فيقولون إن الدم القشتالى يجرى فى عروقه .

ولقد أخذنى من يدى وأمرنى بإلقاء نظرة على السيدات حتى انتقى منهن مَن أوثر الرقص معها ، وحمل أمامى المصباح مرتين أو ثلاثاً ، وهكذا أمضينا تلك الليلة ، ورأيت فيها كثيراً من الأشراف الذين كانوا يتحلون بالشارة التى تسلمتها من مولاى الملك والذين رافقونى فى الانصراف بعد استئذانى الإمبراطور . فلما كان اليوم التالى — وقد فرغ القداس — استدعى الإمبراطور إلى حضرته جميع السفراء الذين وفدوا عليه وجلس على عرشه المرتفع ، كما طلب أسقف « بيرجوس » وسأله أن ينوب عنه فى الرد على جميع السفراء ، وقد فعل الإمبراطور ذلك تكريماً للأسقف ، فلما انتهى الأمر اقتربت منه وأعطانى رتبته وكذلك وسام طائفة « التنين » التى تعادل مكانتها فى المجر مكانة « وسام النسر » فى النمسا ووسام « وتوسينو » فى بوهيميا .

. . .

وبينما دأب الإمبراطور على إقامة الاحتفالات كل يوم — كما قلت —

فإنه لم يهمل قط أمر الحرب التى كان يستعد لها على الدوام ، وكان السبب الرئيسى لهذه الحرب هو الإمبراطورة[١٦٨] أرملة سجسموند وحماة الإمبراطور الحالى ألبرت ، وهى — كما يقول الناس — امرأة منحلة الأخلاق غاية الانحلال ، فلما اتخذ زوج ابنتها الإجراءات ضدها غادرت بلاده وهربت إلى ملك بولندا حاملة معها ثروة ضخمة أعطتها إياه ، كما تنازلت له عن جميع حقوقها فى أراضيها الألمانية ثم تزوجته ، إلا أن هذا الزواج كان باطلا كل البطلان حيث إنها كانت قد جاوزت الخامسة والستين من عمرها على حين لم يتخط هو الثانية عشرة، وقد مكن هذا النزاع البولنديين من النجاح فى دخول ألمانيا ، غير أن أسقف «بيرجوس» الذى كان موجوداً بينهم حينئذ استطاع بفضل حصافته أن يعالج الأمور بحكمة هدهدت من حدة الطرفين وأدت إلى عقد الصلح بينهما ، وكان ذلك أمراً شديد الصعوبة من جراء الخسائر التى سبق أن تكبدها الجانبان .

ونتيجة لذلك أتيحت لى الفرصة لرؤية ملك بولندة حيث وجدته فى إحدى القرى التى تبعد مسيرة يوم وفى صحبته جماعة كبيرة من الأشراف وهم فى أحسن لباس وقد تساحوا على مألوف عادة بلادهم وامتطوا صهوات جيادهم، ويقولون إن الملك سيد إقطاعى كبير لما يملك من الأرض وما ينصبّ فى خزانته من الأموال، وكان فى السن التى ذكرناها آنفاً ذا طلعة بهية رابط الجأش .

كذلك رغبنا فى رؤية مدينة « كراكاو » وهى أهم مدن مملكته إلا أن ذلك كان مستحيلا ، كما أنى لم أحظ برؤية صيد الدب وهى من أعظم ما يستحق المشاهدة فى تلك البقاع حيث حيواناتها بالغة التوحش والعنف مفرطحة الأقدام ، وتلك رياضة رائعة لا يمكن ممارستها دون وجود الكثير

من الرجال والكلاب ، كما أن لحمها شهى المذاق والطعم .

• • •

استأذنت من ملك بولندة ورجعت إلى الإمبراطور فى « برسلاو » ، وبينما كنت ذات يوم أتحدث عن تجاربى سألنى عما صادفنى فى ألمانيا ، فأجبته أن دوق « ستيفن » قد سجننى فى « راينلاند » ، فاشتد غضبه قائلا إن القشتاليين لا يستحقون مثل هذه المعاملة لمعرفته أفضال ملك إسبانيا وشعبه على الألمان ، مضيفا إلى هذا أنه كان قد اعتزم زيارة إسبانيا قبل زواجه

فلما كان اليوم التالى وأنا على مائدة أسقف « بيرجوس » للعشاء دخل رسول الإمبراطور المجرى الذى كنت قد قابلته مع أمير البحر « دون فادريك » واسمه « توزول » ، وجاء هذا الرسول بكأس فضية مذهبة الحواشى بها ثلاثمائة فلورنتى ، بعث بها الملك إلىّ وقال إنه يرجو أن أغفر له أنه لم يستطع أن يمنحنى أكثر من هذا نظرا لظروف الزمان والمكان ، فشكرته شكرا بليغاً لما وصلنى به وأبيت إلا أن أعيد إليه المال ، فقد كان لدىّ ما يكفى احتياجاتى ، كما أن أخذى إياه سيكون عبئا ثقيلا على كاهلى ، كذلك قلت له إننى لو لم يكن معى المال لما اكتفيت بقبول رفده بل لبادرت بطلبه منه إدراكا منى لسخائه العظيم ، فلما سمع الرسول قالتى هذه خلفنى ومضى ، كما أن أسقف بيرجوس فرح بجوابى فرحا شديدا وقصّ الخبر فيما بعد على الملك « جوان » فى حضرتى .

وقلما مر يوم فى هذا البلاط دون مبارزة يشحذ فيها كل جانب حرابه ، ويعدّ خوذه الحديدية ودروعه ، غير أنهم جميعا كانو معتادين على ذلك الأمر ،

مدربين عليه ، بارعين فيه بدرجة تنفى الخطر عنهم .

. . .

ومدينة برسلاو كبيرة جدا بل إنها أكبر من إشبيلية ، هذا إلى شدة ازدحامها بالسكان ، وتدخل فى نطاق أسقف « سيليزيا » أعظم أساقفة هذه النواحى على الإطلاق ، وكان — إلى جانب دخوله الكبيرة — يستطيع أن يدفع إلى ميدان القتال عددا ضخما جداً من الرجال .

أما الإقليم فشديد البرودة إن هو قيس بألمانيا السفلى قياس ألمانيا إلى قشتالة ، ولا تكفى المواقد والمداخن فى التدفئة ، لكن هناك نوعا من أفران الحرارة شائع الاستعمال، إذ يوقد الناس النار تحت حجرة علوية ذات أرض مليئة بالفتحات ، ثم يضعون المقاعد فوقها ويجلسون عليها ويفتحون الثقوب فتتصاعد الحرارة بين الأرجل .

ولشدة برودة المدينة فإن الإمبراطور ورجال حاشيته يخترقون الشوارع فى عربات خشبية أشبه بآلات درس الغلة ، وتجرها جياد ذات حدوات حديدية كما يفعلون فى الريف ، تسير بهم فى الشوارع ، ويمضى البعض الآخر فى عربات تجرها ثمانية أو عشرة جياد ، وهى مغطاة فى إحكام بالمظلات ويثبتون المجامر فيها ، وبذلك يمضون من بيوتهم إلى القصر أو إلى أى مكان يشاءون ، ولا يركب الموسرون الجياد خوفاً من الزلق لأن شوارع المدينة أشبه بالزجاج من جراء الجليد الذى لا ينقطع تساقطه ، ويسير الكثيرون رجالا على أقدامهم ويحضر كل شخص — حتى الأطفال — إلى الكنيسة عند منتصف الليل ولا يفوت أحداً منهم حضور القداس ، ويزودون أنفسهم بكميات كبيرة من الطعام والشراب ، وهى عادة قد تبدو لنا أشد غرابة من كل عادة سواها

وأعتقد أن ما ينفق على الفراء والتوابل أكثر من نصف ما ينفقه العالم كله عليهما ،فالقوم شديد والثراء، ولديهم الفضة بوفرة كبيرة،ولما كانوا لايحتفظون بكثير من الخدم ، وكانوا فى الوقت ذاته ذوى دخل هائل وثروة ضخمة فإنهم يعيشون عيشة طيبة جداً .

• • •

والإمبراطور ألبرت رجل محمود الفضائل ، صادق فى مسيحيته مخلص لها ، يستجيب للأوامر الدينية ويتمثل هـذا فى أعماله للنطوية على الرحمة ، ويرجع إليه الفضل وحده — أيام أن كان لا يزال دوقا — فى عدم دخول البوهيميين ألمانيا إذ كانت مقاومة الإمبراطور سجـموند قليلة لأن أصله البوهيمى حمله على عدم الزحف عليهم .

الفصل السابع والعشرون

مغادرة برسلاو . الرحلة إلى فينا . مهاجمة طيفور فى الطريق .
فينا . الإمبراطورة اليزابث . بودا . نوبشتات .
فردريك دوق النمسا . الألب . فريولى .
تريفيسو . بادوا .

. . .

سألت الإمبراطور أن يتفضل فيأذن لى بالرحيل لرغبتى فى العودة إلى قشتالة بعد أن ساهم مولاى الملك بنفسه فى الحرب الإسلامية ، والنمس الحاضرون منه أن يعهد بى إلى رعاية اثنين من فرسانه كانا مسافرين إلى ڤينا فى قوة قوامها مائتا فارس ، ومن ثم رحلنا من برسلاو واستطعنا الوصول بعد المشقة الكبرى والخطر المقيم إلى حدود بوهيميا ، ثم دخلنا ولاية موراڤيا التابعة للإمبراطور ألبرت منذ أن خلعها عليه صهره الإمبراطور سجسموند بعد زواجه ، فطالعنا بموراڤيا كثيرا من النواحى المهجورة التى دمّرها البوهيميون والتى لا تزال آثار النيران ظاهرة بها ، ومن ثم أمضينا إثنى عشر يوما حتى أدركنا ڤينا بعد أن قاسينا الأمرّين من الجليد والصقيع ، وسرنا فى طريقنا على نهرين عبرناهما بعرباتنا على الثلج ، وكان الجو قارس البرودة والصرد تقضقضت له أسنانى حتى كادت أن تسقط من فمى ، وليس من شك فى أن اجتياز مثل هذا القطر فى الشتاء أمر مستفظع .

كان أحد رفيقىّ الفارسين يعيش فى مكان تابع للإمبراطور الحالى ، أما الآخر فيقيم هو وزوجته فى ڤينا بدار منحه إياها الإمبراطور ألبرت خارج

المدينة وتبعد عنها بمرحلتين ، فلما أصبحنا على مسافة فرسخين من ڤينا تركنى الفارسان وشخص كل منهما إلى مقامه ، وقد سألنى هذا الفارس الذى يعيش فى ڤينا أن أمضى معه فى داره خمسة أيام أو ستة ، قائلا إنه سيأتى لأخذى من المدينة ، ثم افترقنا بعد أن دلّنى على الطريق إلى ڤينا وأخبرنى أين أقيم .

* * *

لم أكد أبعد نصف مرحلة عن الناحية التى كنت بها حتى تصدى لمهاجمتى جماعة من النبلاء المشاة قاصدين سلبى مامعى ، ولكنهم لم ينجحوا فى خطتهم بفضل ما لدىّ أنا وصحابى من جياد سريعة ، فتهيأت لنا النجاة منهم ، وبلغنا ڤينا ونزلنا الخان الذى ذُكِرَ لنا ، لكن لم أكد أجلس إلى المائدة حتى ظهرت نفس هذه الجماعة من النبلاء الذين هاجمونى فعرفت أحدهم فى الحال ، وسألتهم كيف يرتضون لأنفسهم أن يسلكوا هذا المسلك ، فأنبأونى أنهم نبلاء فقراء وأنهم يحتالون على الحياة باللصوصية ليقيموا أودهم ، فأخبرتهم أننى أنا نفسى رجل نبيل فقير ، وزيادة على ذلك فإننى غريب فى أرضهم ، وأن احتياجاتى ربما فاقت احتياجاتهم ، فراحوا يلتمسون منى العفو عنهم ، وعرضوا علىّ أن يرحلوا فى طلب شىء من المال يستطيعون به استضافتى لكننى شكرتهم وأجلستهم معى ووصلتهم ببعض النقود التى كان فرحهم بها عظيما جداً ، ودأبوا على ملازمة صحبتى معظم الأيام التى قضيتها فى المدينة .

وتقع ڤينا [١٦٦] على نهر الدانوب وهى كبيرة جداً يبلغ حجمها حجم قرطبة ، وبيوتها فى غاية الحسن من الداخل والخارج ، وشوارعها لطيفة وكذلك كنائسها وخاناتها ، أما كنيستها الكبرى فأبرز ما فيها البرج المنقول تماما عن برج كنيسة « ستراسبرج » ، والأراغين كبيرة جدا فإذا نفخ فيها

خيل لمن بالسكنيسة أنها على وشك الانهيار ، وتحفل هذه المدينة بالصناع فى شتى الحرف، وبها جامعة لدراسة العلوم .

وللإمبراطور قصر رائع جدا كانت به الإمبراطورة[١٦٧] فزرتها تلبيةً لأمر زوجها ، وهى ابنة الإمبراطور سجسمند ، لا يقع الطرف على أجمل منها طلعة ، كما أنها طويلة القامة ، وقد رزقت إبناً صغيراً هو الآن ملك المجر، وابنتين يتراوح عمرهما بين الحادية عشرة والخامسة عشرة ، فلما لقيت الإمبراطورة أفضيت إليها بخبر زوجها، وأنبأتها بانعقاد السلام بينه وبين ملك بولندة ، وأن الإمبراطور يتأهب للعودة فخفق فؤادها فرحا لسماع هذا النبأ ، ثم بَعَثَت فى استقدام جماعة من أفاضل حاشيتها وأمرتهم بحسن معاملتى وإطلاعى على مشاهد المدينة وملازمتهم صحبتى ، ففعلوا ما أمرتهم به ، ثم استأذنتها بعدئذ فى الرحيل فأعطتنى وسام التنين الذى كانت تلبسه — رغم أن الامبراطور قد خلع علىّ مثل هذا الوسام — قائلةً إنه وسام أبيها ، وأنها لا تستطيع خلع سواه علىّ .

بقيت مع هؤلاء السادة وفى المدينة أربعة أيام مؤتنساً بصحبتهم حتى بعث إلىّ الفارس الذى كان رفيقى فى الرحلة بسيدين لمصاحبتى فرافقتهما ، وغادرت هذا المكان إلى حيث كان هذا الفارس فى انتظارى ، فتلقانى بداره المسماه « لكسِنْدُورف » ، غير أننى قبل مغادرتى ڤينا ذهبت لرؤية « جورج فونيروك » الذى تآخى مع « دون فرنا ندودى جيفارا » فى السلاح ، وصحبنى هذا الفارس مسافة الفرسخين إلى البيت حيث دعاه مضيفى للغداء معنا قبل رحيله ، وكان سمرنا فى هذا اليوم عظيما ، ثم عاد الفارس إلى ڤينا وبقيت مع مضيفى أربعة أيام استعدت فيها نشاطى تماماً بعدها،

وقد أكرم القوم وفادتى كأننى أحـــدهم ، وتلقتنى ربة الدار لقاء الأم لولدها .

رأيت كافة نواحى المزرعة التى تعد من أكبر وأروع المزارع التى شاهدتها، وهى شديدة الحصانة بفضل خندقها وسورها رغم وقوعها فى سهل ، كما يقوم على أحد جانبيها بستان كبير يمتد مسافة فرسخ طولا تمرح فيه الخنازير البرية والظباء وغيرها من حيوان الصيد ، ويشق المزرعة نهر تنمو على جانبيه الأحراش الكثيفة ، ويحتفظ الإمبراطور فى هذا المكان بصناع الأسلحة والسيوف والأقواس والسهام والدروع وغيرها من الأشياء الرائعة التى تستحق المشاهدة .

. . .

ثم وصلنى الفارس وزوجته ببعض الهدايا ، فأعطتنى هى ثوبا من التيل، وتفضل هو على بسيف ومهماز وسرج مذهب ، ثم استأذنتهما فى الرحيل ، وسألت هذا الفارس أن يبعث بأحد رجاله معى إلى « بودا » إحدى مدن المجر وتبعد عن هنا مسافة ثلاثة أيام .

* * *

رحلت بصحبة هذا السيد واتخذنا طريقنا على طول نهر الدانوب حتى دخلنا بلاد المجر وهى بلاد بالغة الاتساع، كثيفة السكان ، تزخر بالحصون الكبيرة والواقعة على الحدود الألمانية .

وصلنا إلى مدينة « بودا» التى تبلغ فى حجمها حجم مدينة «وادى الوليد» ويشقها نهر الدنوب ، كما أنها تعد أكبر مدن بلاد المجر ، ويكثر فيها الصناع ولكنها لا تبلغ شأو المدن الألمانية فى النظافة ، وأهلها أميل إلى الامتلاء ،

مما يرجعه البعض إلى ما يتقلّبون فيه من الترف ، وقد قام الإمبراطور سجسمند بإدخال تحسينات جمة بالمدينة ، وشـيّد قصراً رائعاً بها أقام فيه قاعة استقبال ضخمة تشبه تلك التى فى « بادوا » ولـكنها لم تبدُ لعينى فى روعتها .

• • •

رحلت من هناك حتى بلغت حدود المجر ودخلت ألمانيا وجئت إلى مدينة اسمها « نويشتات » أى « البلدة الجديدة » ، فألفيت بها الإمبراطور الحالى فردريك الذى كان إذ ذاك دوق النمسا[١٧٣] ، وهو ابن عم الإمبراطور ألبرت ولـكنه لا يبلغ من النبل مبلغه ، وكان مشغولاً حينذاك بالاحتفالات التى أقيمت لزواج ابنته من والى « ميسّين » المشار إليه سابقا الذى كان قد أنزل الهزيمة بالبوهيميين ، فبقيت مع الدوق الذى أصبح الآن إمبراطوراً ، ولازمته أسبوعا كاملا ، وهنا التقيت مرة أخرى برفيق رحلتى الثانى الذى أبدى لى كثيراً من الرعاية والرقة، كما فعل مثل فعله الدوق الذى كنت أتناول معه طعام الغذاء كل يوم .

جاء لمشاهدة عقد القران جمهور كثيف جداً من الناس من ألمانيا، ولم يكونوا من أهل بيته فحسب لضخامة مـكانته ، بل كان فيهم جماعة من بنى جلدته وأصدقائه ، وكانت العروس سيدة رقيقة فـكان الحفل كريما ، أما عرسها فـكان متغيبا فى وطـنه بسبب الحرب ، فأخذوا العروس إليه .

أما الدوق — وهو الإمبراطور الحالى — فقد بلغ من الثراء حدا ليس بعده زيادة لمستزيد وإن قيل إنه يعرف جيداً كيف يحتفظ بما لديه ، وكان قد عاد من بيت المقدس قبل رحيـلى بعدة أيام ، وسّره كثيراً أن

يتحدث إلىّ بخبر البلاد الواقعة فيما وراء البحر ، ونشطت نفسى بصحبته ، ثم استأذنته فى الرحيل فأذن لى ، وبعث بالتابع الذى كان قد رافقنى إلى المجر إلى مولاه الذى كان على مسيرة رحلة يوم من هذا المكان .

• • •

تركت « نويشتات » مخترقا بلاد هذا الدوق الواسع الأملاك ، ماراً بمدنه وبلدانه وقلاعه حتى بلغت جبال الألب التى لقيت المشقة الكبرى والخطر الجسيم فى اجتيازى إياها بسبب الصقيع الشديد ، على أن الأمر الذى يستوجب الالتفات أن هذا البرد لم يحل دون ازدحام جميع الممرات بالسكان وتوافر المئونة بكثرة ، وكان البنادقة قد اغتصبوا كل هذا الإقليم من الإمبراطورية[١٧٣] ، فبنوا فى الممرات والمعابر الضيقة أسواراً وأبواباً يغلقونها عليها ، كل ذلك ليقوّوا من بأس طغيانهم ، ثم انحدرتُ نحو إيطاليا وجئت قطراً يسمونه « فريولى » يتبع بطرك « أكويليا »، وكانت له أملاك كثيرة فسيحة فى هذه الناحية ، إلا أن البنادقة استولوا عليها كلها ، ولقد رأيت البطرك فى بلاط الإمبراطور شاكياً إليه هذا الأمر ، ولاشك فيما يقال من أنه لو لم يمت الإمبراطور لعاجله البنادقة بالسم بعد أن أن ترامى إلى سمعهم نبأ اليمين التى قطعها على نفسه بأن يسلبهم كل ما فى حوزتهم من أشياء تملكوها قسراً واغتصابا .

ثم ذهبت إلى « تريفيسو » ، وكانت هى الأخرى من المدن التى احتلها البنادقة ، وهى مدينة كبيرة غنية واقعة على مقربة من المجر ، وتبعد عن البندقية رحلة يوم تقريبا .

• • •

رغبت فى أن أتوجه حالاً إلى البندقية ، ولكنى سمعت أن البابا قد

اعتزم مغادرة « فرارا » إلى « فلورنسا » ومن ثم حثثت الخطا لأصل قبله ، فجئت إلى مدينة « بادوا » التى تكاد تبلغ حجم إشبيلية تقريبا ، وتمتاز بشدة ثرائها ومركزها التجارى العظيم ، وتقع على مقربة من البحر ولا تبعد عن البندقية بأكثر من نصف يوم ؛ وكان البنادقة قد أخذوها هى الأخرى من صاحب « كرارا » التى كانت من أملاكه الدينية ، وقد ذهب هو أيضاً إلى الإمبراطورية شاكيا إليه صنيع البنادقة .

ولقد علمت أن البابا لن يرحل إلا بعد خمسة أيام أو ستة ، فبقيت فى « بادوا » ثلاثة أيام ، والواقع أنها تزخر بكثير مما يستحق المشاهدة ، ففيها جامعة عظيمة جدا تُعدّ من أحسن جامعات العالم المسيحى ، وبها دير ضخم غنى يضم جثمانَىْ القديسين « أنطونيوس دى بادوا» و « لوقا الإنجيلى » وهو مكان شهير مقصود للحج والعبادة .

وفى وسط المدينة قاعة كبيرة[١٧٤] تبلغ ضعف حجم أى قاعة مما رأيت ، وسطحها مغطى بالرصاص ، أما داخلها فبمعدن البلاتين ، وسقفها أزرق اللون بديع الرسوم محلىً بنجوم ذهبية ، وفى وسطها قضبان من الحديد على شكل أعمدة ازدانت بصور تفاح ذهبى اللون كبير الحجم ، وقد صُوّرة عليها قصة العالم منذ بدء الخليقة إلى ظهور المسيح .

ويقولون إن الرسم وحده تكلّف أكثر من أربعة ألف دوكات، وتدور حول القاعة مقاعد خشبية حيث تقام العدالة ويقضى بين الناس ، أما فى الخارج فتوجد مجموعة من الأعمدة الباسقة .

وللقاعة أربعة أبواب ، على كل منها تماثيل رخامية ، إثنان منها لتخليد ذكرى رجال العلم من أجل هذه المدينة لاسيما «تيتس ليڤيس» المؤرخ «وبطرس أبانو[١٧٥]» أحد كبار السحرة الذى أحرقه الإخوان الصفار لقيامه بأمور عجيبة

رائعة ، مثل سَحْبِه سفن القسطنطينية مباشرة إلى ميناء البندقيةوغير ذلك من الأعمال التى تدخل فى قدرة السحرة .

وقد أقام القوم تحت هـذه القاعة حوانيت لصناع الملابس والأحذية ، ويستطيع المرء من هناك أن يتبين نخامة القاعة حيث يوجد جميع تجار المدينة رغم شده اتساع المدينة التى تحتوى على بعض المبانى الشديدة القِدَم ، وقيل إن بانيها « أنتينمور » بعد خراب طروادة ، والواقع أن مبانيها ذات طابع قديم .

وحدث فى يوم وصولى أن كان حكم القضاء ينفذ فى أحد أهالى بادوا لاغتياله فارساً من أهـل قطالونيا واسمه « موزن ڤيلافرانكا » كان قد نزل ضيفاً على هذا المواطن .

الفصل الثامن والعشرون

فرارا . البابا يرحل إلى فلورنسا . البندقية .
فيرونا . فلورنسا . البابا والإمبراطور .
بيزا . بولونيا . البندقية .

* * *

تركتُ بادوا وسافرت عبر القنوات ، ولما كان هذا الإقليم قريباً كل القرب من البندقية فإن الناس يجمعون المياه فى بحيرات بعضها عذب ماؤه وبعضها ملح أجاج ، لكنها ذات رائحة كريهة جدا ويسمونها بالمستنقعات، وإذا أراد الإيطاليون الإشارة فى كلامهم إلى شىء عفن أو نتن شبّهوه بهذه المستنقعات .

ولما اقتربنا من « فرارا » أخبرونى برغبة البابا فى مغادرتها ، وكان حقا ما قالوا ،فقد وجدت البابا على وشك الرحيل إلى فلورنسا حين وصولى ، ولم أكد أبلغها حتى مضيت إلى إمبراطور اليونان الذى لم يكتم سروره البالغ لرؤيتى مرة أخرى ، ورأيت تقدم البابا الذى تم على الصورة التالية[١٧٦] ، فقد نهض لاستقباله موكب خرج فيه جميع الأساقفة ورؤساؤهم والكنهة والقسس حاملين الصلبان سيراً على الأقدام ، وجاء من بعدهم الكرادلة على ظهور الجياد، وعكاكيزهم فى أيديهم على النظام السابق ، ومن ورائهم إثنا عشر حصانا عليها حلى قرمزية ، قد وضعت المظلة على أحدها ، والكرسى على الثانى ، والوسادة على الثالث وهكذا حتى النهاية .

وأما الحصان الأخير فكان مغطى بنسيج حريرى مشجر ، كما وضعوا

العشاء المقدس المبارك فى وعاء محمول على سرج فضىّ ، وعلقوا إلى هذا الحصان ناقوسا ذهبيا يقوده اثنان من الشمامسة من اللجام .

ثم جاء البابا نفسه معتلياً جواداً فى زينات قرمزية ، وقد ارتدى مسوح القداس ، ولبس تاج الأسقفية ، وراح يبارك الواقفين على الجانبين ، بينما مضى الرجال ينثرون قطع العملة فى الشارع لينال ملتقطوها الغفران ، وقد عمدوا إلى هذه الوسيلة ليمنعوا جموع الناس من التزاحم على البابا الذى كان مركيز «فرارا» وكونت « أربينو » يأخذان بلجام حصانه .

وجرت الشائعات أن دوق ميلان يتربص للقبض على البابا ، ومن ثم قام المركيز بحراسته ذلك اليوم حتى أوصله إلى صومعة على بعد ميل من هناك ، وكان فى صحبته حشد كثيف من الرجال المسلحين ليوقع فى وهم الرائى ما يخال معه كثرة القوات الحربية المرافقة للبابا فى سفرته إلى إحدى مدنه حيث كان قد أعدّت احتفالات كبيرة ، ولكن الواقع أنه ركب معه فى اتجاه مخالف حتى أوصله إلى فلورنسا سالماً بعد يومين ، ويقال إن البابا قدّر للمركيز هذا الصنيع وغيره من الأيادى التى قدّمها له ، فخفض الضريبة المفروضة على المركيز إلى ثلاثة آلاف دوكات ، وأقرّ جميع امتيازات ميلان مما يتجلى من الرسوم الذى نقشه المركيز على لوحة حجرية وضعت فى كنيسة فرارا الجامعة .

تلبّثت يومين فى فرارا ، ثم رغبت فى السفر فلم أجد مناصاً من الرحيل إلى فلورنسا لأن كل المصارف كانت مغلقة ، وكان جميع الصيارفة قد رحلوا ، ورغب الإمبراطور فى أخذى معه لكننى رحلت تاركا جيادى فى فرارا للعليف ، ومضيت إلى البندقية للوقوف على خبر بضاعتى ولأخذ حظى من الاستجمام ، بينما كانت جيادى تستعيد نشاطها وتجدد قواها فى فرارا .

* * *

أما الإمبراطور فقد رحل فى اليوم الثانى وبقيت أنا فى البندقية، فنزلت نزلا طيباً أحسست فيه كأننى فى دارى ، ورأيت أننى مدين بالفضل الكبير إلى صديقى التاجر الذى عهدْتُ إليه بمتعلقاتى ، إذ الواقع أنه لم يكن فى الإمكان أن أعهد بها إلى أحد خيراً منه ، وكان يستعد للرحيل إلى إشبيلية ، فسألته إن كان يقبل أن يشحن معه بضاعتى إليها ، ولم أستبق معى غير النقود ، فأجاب سؤالى وأدّى لى هذه اليد الكريمة عن طيب خاطر كما فعل من قبل معى ، فبقيت معه بالبندقية حتى رحل .

وفى هذا الوقت الذى كان البابا يعقد فيه بلاطه فى « برشيا » تواترت الأنباء بأن دوق ميلان قد ملأ تلك المدينة بقوارب جاء بها من البحيرة مما استحال معها إدخال المؤونة، وأن البنادقة جهزوا غراباً واستطاعوا بدهائهم نقله على اليابسة عبر جبل فى الجبال يطاول ارتفاع جبال قشتالة ، ثم جرّوه وأنزلوه فى البحيرة [١٧٧] ، وأحسب أن مائة ألف من الناس قدموا لرؤية هذا العمل الباهر، وما كان لهم إلا أن يفعلوا ذلك لأننى لم أشاهد قط ما يجاريه روعة أو يبلغ ما بلغه من صعوبة لا يكاد يصدقها الإنسان ، فما كاد الغراب ينزل الماء حتى حطم جميع القوارب الأخرى ، فلم تواته الشجاعة غيره من القوارب على المجىء ، وبذلك نجت المدينة ورفع عنها الحصار رغم أن أهل ميلان راحوا يتشدّقون ويزعمون استيلاءهم عليها، فذهبْتُ لرؤية رجال دوق ميلان الذين كانوا هناك وفى صحبتى « نيكولا بتشيرينو » [١٧٨] قبطانهم فكانوا جيشاً جميلا جداً .

* * *

سافرت حتى جئت إلى مدينة « فشنزا » الجميلة التابعة للبندقية ، ثم وصلت بعدئذ إلى «فيرونا» وكانت هى الأخرى من أملاك البنادقة ، وهى مدينة

كبيرة غنية رغم قلة عدد سكانها كما أنها قديمة جداً، والوارد عنها فى الأخبار أن الفضل فى تشييدها يرجع إلى جهود المنفيين الرومان الذين أطلقوا عليها إسم « ثيروما » ومعناها « ها هى ذا روما أخرى » ،والواقع أنه يمكن رؤية كثير من الآثار الرومانية بها مما يقوم دليلا على التشابه بينهما .

ثم عدت إلى البندقية وبقيت هنـاك يومين ورحلت بعدهما إلى فلورنسا حيث وجدت البابا والإمبراطور ، فجمعت أموالى ومكثت بها ثمانية أيام أشاهد المدينة التى هى من أعجب مدائن العالم المسيحى اتساعاً وثراء وحكومة ، ويحكمها أشخاص ينتخبون بالقرعة كل شهر ، وقـد تقع القرعة على إسكافىّ أو شريف، وعلى أية حال فليست هناك حكومة أنشأوها .

وفلورنسا غاصة بالبيوت الجميلة والشوارع والفنادق الفخمة ، وقد ضربت بسهم وافر فى النظافة والنظام ، إلى جانب ما تحفل به من الـكنائس الرائعة والأديرة ، ولا يوجد ضريب فى العالم لمستشفياتها ، فهناك واحدة للرجال وأخرى للنساء ، وهى نظيفة جداً وحسنة الترتيب والتجهيز ، وإذا مرض ملك أو أمير بادر فى الحال إلى قصره والاتجاه إليها طلبـاً للشفاء ، وزيادة على ذلك فهناك غرفانات لمن يعيش فيها ، وغرفان تام لمن يموت بها ، فمن ذا الذى يستطيع أن يُقَدّر العمل الطيب الذى تقوم به هذه البيمارستانات ؟ ذلك أن كل مريض يقيم حسب مكانته ولـكن العلاج واحد للجميع ،والواقع أن فلورنسا قـد أنجبت رجالاً عظاماً بارعين فى العلوم، ولازالت على ذلك حتى اليوم.

وكنيسة هذه المدينة الجامعة من الـكنائس التى نالت غاية الشهرة، كما تحفل بالمبانى الرائعة لا سيما البرج القـائم عند باب الـكنيسة المزين تقريباً حتى قمته بالتماثيل الرخامية، وأمامها ميدان فسيح تتوسطه كنيسة بلغت من الضخامة حداً كبيراً ، قد زين داخلها بالفسيفساء وغطى خارجها بالرصاص ، وتدعى بيعة

القديس « يوحنا المعمدان » ، وبها حوض معمودية كبير وهيكل يقيمون به القداس، وقد رفعت خفاقة رايات جميع المدن التابعة لفلورنسا والخاضعة لحكمها، فقد نجحت فلورنسا — بفضل حكومتها الرشيدة — فى الاستحواذ على الكثير من الأراضى ، حتى إن مدينة بيزا نفسها — التى كانت فلورنسا تابعة لها حيناً من من الزمن — قد صارت فى ولايتها، وأصبح حكامها الآن يتولون شئونها بأنفسهم.

* * *

ومدينة بيزا — كما يقولون — كانت تملك فى وقت من الأوقات جزائر صقلية وسردينيا وكورسيكا وولايات أخرى شاسعة فى البر ، لكن حدث ذات مرة أن اجتازت بها سفينة كان عليها أحد الكرادلة وبعض القس وجماعة من سفراء البابا فى طريقهم إلى ملك فرنسا، ولم تؤد السفينة التحية المألوفة[١٧٩]، وإذ ذاك هرع البيازنة إلى سلاحهم فامتشقوه ، وأسروا السفينة وأحرقوها؛ فلما سمع البابا بهذا النبأ اشتدّ به الغضب وأمر بإعلان الحرب على البيازنة واعتبرها حرباً صليبية وجهاداً دينياً وأنزل بهم ضرراً بليغاً ، ولم يتفيء غضبه إلا بتدخل بعض الملوك والأباطرة ، وكف منح الغفران لهؤلاء المجرمين بسبب نهوضهم إلى المدينة المقدسة واحتلالها ، وإذ ذاك أعدّ البيازنة أسطولاً ضخماً خرجوا به واستولوا على بيت المقدس وتوابعها وأقاموا بها ردحاً من الزمن، لكن تبين لهم فى النهاية أن المحافظة عليها تكلفهم غالياً فباعوها : الأمر الذى يُظن أن جميع مصائبهم جاءت منه ، ويشك فيما إذا كان بالمدينة الآن بيزىّ واحد وُلد ولادةً طبيعيةً ، وكان عليهم أيضاً أن يهدموا مبانيهم وأن يلبسوا قلانسهم مقلوبة آيةً على دنسهم ، ومن ثم فإن الناس قاطبة يستنكفون منهم، وهكذا ذُلّوا لمن كانوا بالأمس خدمهم .

ويقال إن البنادقة والجنوية كانوا ببيت المقدس حين احتلال البيازنة

إيّاه ، فلما سقطت المدينة فى أيديهم عمدوا إلى تقسيم الكنز الذى وجدوه أقساماً ثلاثة ، فجاءوا إلى أحد هذه الأقسام واتخذوا مكاناً للكأس المقدس المصنوع من قطعة واحدة من الزمرد ، ووضعوا فى الثانى العمودين اللذين كان المرء يستطيع أن يتنبأ بالخطر من كل منهما بالشرور التى ستحيق به وما يرغبه، أما القسم الثالث فقد جعلوه موضعاً للكنز .

ثم أخرجوا سهامهم يشاورونها فكان الكأس المقدس من نصيب جنوة حيث لايزال إلى الآن كما رأيته بنفسى[١٨٠] ، ونال البيازنة مدينة بيت المقدس والعمودين اللذين نقلوهما إلى بيزا، أما البندقية فأخذت الكنز الذى هو أساس جميع ثروتها ، غير أن العمودين اللذين نقلا إلى بيزا فقدا ميزتهما حين بيعت بيت المقدس .

وببيزا كنيسة شهيرة جداً ودير قد نقلت تربته من أرض بيت المقدس الكريمة ، واشتريت هذه التربة بثلاثين قطعة من الفضة وتسمى هنا فى بيزا بالتربة المقدسة Campo Santo ، ويقال إن الجثث التى تدفن هنا لا تبقى أكثر من ثلاثين يوما لأن الأرض تفنيها .

وليس من شك فى أن بيزا كانت مكاناً عظيماً ، فميناؤها نهر يصل إلى المدينة فتدخلها الأغربة وتصدر عنها ، أما «لجهورن» القريبة منها فهى الميناء الرئيسى للشوانى والسفن .

• • •

رحلت عن فلورنسا وجئت إلى بلدة يسمونها « فيرنزولا » وهى تقع فى جبال « بستويا » حيث انتصر هانيبال فى وقعة « كاناى »، ويوجد على مقربة من « فيرونزولا » نهر يلتف حول حقل محترق كله[١٨١]، إذا رموا بالخشب فيه

احترق فى الحال ولكن لا يظهر أثرٌ لنارٍ أو شىء يحترق.

وهذه عجيبة كبرى .

وقد تسلقت هذه الجبال الشديدة الوعورة رغم ازدحامها بالسكان، ووصلت إلى مدينة بولونيا العظيمة الشهيرة ، ثم رحلت عنها إلى « فرارا » وأخذت جيادى التى كنت قد تركتها للرعى والكلأ ، فوجدتها قد أصبحت شديدة السمنة فبعتها وعدت إلى البندقية حيث مكثت شهراً فى انتظار إحدى السفن لنقلى ، حتى وجدت أخيراً واحدة ميممة شطر صقلية فجمعت كل متاعى وركبتها.

الفصل التاسع والعشرون

العودة للوطن . رافنا . برنديزى . مضيق مسينا . الحوريات .
جزائر ليبارى . بالرمو . سرقوسطة . جبل إتنا .
تونس . سردينيا .

. . .

غادرنا البندقية وأبحرنا مصاقبين للساحل الإيطالى حتى بلغنا مدينة اسمها « رافنا » وهى مدينة قديمة جداً ، جئنا منها إلى « ريمنى » التابعة لكونت « أريمنودا مالا تيستا » ، ثم مضينا إلى مدينتى « بيزارو » و « فانو » الجميلتين ، وأدركنا فى النهاية « أنكونا » وهى من أملاك الكنيسة ، ثم أبحرنا إلى ميناء « برنديزى » الرائع ولعله أجمل من أى ميناء آخر وقعت عليه عيناى ، وهو فى منطقة أبوليا التى يسمونها Tierra di Lavoro .

فلما كان اليوم الثانى رحلنا عنها ، وانثنينا عند رأس « سبارتيفنتو » ، ثم أبحرنا يمينا لأن الريح كانت مواتية لنا فبلغنا هذا المساء جزيرة صقلية ، فبقينا بالبحر حتى طلع اليوم التالى ، ثم خرجنا - فى جو طيب - خلال مضيق مسينا - تاركين « قلهورية » الواقعة فى مملكة نابلى على يميننا وصقلية على شمالنا ، حتى أرسينا عند مدينة « مسينا » بعد جهد شاق بسبب التيارات العنيفة الموجودة هناك .

ويزعم الشعراء أن هذا المضيق كان موطن عرائس البحر ، ويقولون إن نابلى وجزيرة مسينا كانتا فى وقت من الأوقات متصلتين بعضهما ببعض

وكانتا تؤلفان قطرا واحدا ، غير أن زلزالاً فصل هاتين الجزيرتين بعضهما عن بعض ، والبحر هنا أعمق منه فى أى مكان آخر .

ويقولون أيضاً إن فى هذه النواحى نوعا من السمك على شكل امرأة من الوسط إلى أعلاه ، أما أسفل ذلك فيشبه السمكة ، وتعيش هذه المخلوقات فى الأعماق حيث يمكن ملاحظة أول تحركات الرياح ، فإذا أحست بالحركة وكانت قوية جدا أدركت أن عاصفة جامحة على وشك الوقوع ، وإذ ذاك تظهر على سطح المـــاء وهى تغنى أغنية ، ويزعمون أن الموت المحقق من نصيب من يسمعها ولا نجاة له منه ، فهى أغنية حزينة نادبة ، لأن هذه العرائس لا تغنى إلا حين تشتد العاصفة وتزمجر غاضبة فلا تتهيأ النجاة منها لأحد إلا بمعجزة .

والماء عند ميناء مسينا شديد العمق مما يمكن السفن الكبيرة أن تسير فيه ، ويعلوه لسان من الأرض أشبه بالرصيف الصناعى ، ويوجد عند أحد أطرافها دير للرهبان[١٨٢] اليونان ، وعند الطرف الآخر ترسانة السفن .

والمدينة غاصة بالمبانى الكبيرة وهى قديمة جدا ، وقد أكثر من الكتابة عنها الشعراء والخطباء والمؤرخون القدامى لاسيما فى الحرب البونية الأولى ، وهى مسورة أحسن تسوير ، وتكثر الحدائق الجميلة بداخلها وخارجها ، وهى حسنة الرى ، وعلى الرغم من أن مساكنها الآن متناثرة بعض الشىء إلا أن فى قدرة الناظر إليها أن يدرك أنها كانت عظيمة فى وقت من الأوقات .

وفوق المدينة ـ تجاه قلهورية ـ يوجد مكان اسمه « ريجو » ؛ والمضايق شديدة الاتساع حتى ليستطيع المرء فى اليوم الصحو أن يرى الشخص راكبا جوادا على الساحل بالجانب الآخر .

تركت مسينا وجئت إلى « باتى » وهى بلدة صغيرة فى نفس الجزيرة ،

وأمامها جزيرة البركان التى يقولون إنها أحد أفواه الجحيم الثلاثة لأنها تقذف بلا انقطاع النيران المصحوبة بدمدمة الرعد وكميات ضخمة من Scoria الحشة التى تبلغ فى خفتها حدا تطفو معه على سطح الماء .

وعلى مقربة منها توجد فوهة أخرى يسمونها « سترمبولى » ترمى بالحمم كسابقتها ، وتتصل بها جزيرة صغيرة يسمونها «ليبارى» يعانى أهلها شدة الآلام فى عيونهم من جراء الدخان المتصاعدمن سترمبولى،وهى مركز الأسقفية الرئيسى ، ورأيت بها وأنا أحاول الرسو ـ أكبر سمكة تسنى لى رؤيتها ، فقد بلغت من الضخامة مبلغ برج كبير .

ركبنا هذا اليوم لأن سفينتنا لم تستطع التقدم من جراء الهدوء الشديد ، وكان هناك غراب إسلامى ضخم يصحبه إثنان أصغر منه، وقد خرجت كلها للقرصنة وراحت تدنو منا وإن لم تجرؤ على مهاجمتنا ، ومن ثم بقينا هذا اليوم حيث نحن حتى صلاة الغروب حين هبت ريح رخاء وملأت أشرعتنا ، فظللنا مبحرين طول تلك الليلة ، فلما كان فجر اليوم التالى أصبحنا على مقربة من جبل « بلجرينو » الذى يعلو ميناء «بالرمو»،فأرسينا به ونزلنا إلى الشاطىء لينجز القائد عملا له هناك، وبقينا به مدة ستة أيام .

وتبلغ مدينة بالرمو فى الضخامة مبلغ إشبيلية، ثم أخذت فى الاتساع الشديد منذ أن شن ملك أراجون الحرب على نابلى حتى لقد زاد عدد سكانها الآن كثيراً عما كان عليه من قبل ، وهى المركز الرئيسى للمواصلات ، كما أنها مركز أسقفية ، وتبعد الكاتدرائية عن البلد مسافة ميلين ، ويكون فيها تتويج ملوك هذه النواحى ودفنهم بها ، وهى كنيسة فخمة مزينة أبهى زينة ومحلاة بأجمل فسيفساء رأيته فى الأقطار اللاتينية ، وتسمى كنيسة «مونريالى»[١٨٣] .

وقد أصابت مدينة بالرمو حظاً وافراً هيأته لها تجارتها ، كما أنها حافلة بكل شيء ، وتقع فى قطر كبير وتعتبر من أكبر مدنه ، وتشتهر بما يوجد فيها من قصب السكر .

« ومونت بلليجرينو » جبل شديد الارتفاع كثير المياه واسع المرعى ، ويقول الناس إنهم لا يكادون يأخذون إلى ذلك الجبل أى حيوان على وشك الموت حتى يشفى فى ثمانية أيام ، وتبعث هذه المدينة إلى ملك أرغونة فى نابلى بإمدادات وفيرة من الأقوات والجياد ، ويقوم أهلها ببناء السفن المسماة باسم «طيفورية» التى تحمل الواحدة منها ستين حصاناً أو أكثر .

غادرت « بالرمو » وذهبت إلى « ترابانى » الواقعة عند نهاية الجزيرة، وهى ميناء جيدة جداً وبها برج يسمونه برج « كولمبريا » يصيدون على مقربة منه للرجان[١٨٤] ، وهو مكان رائع حسن البناء ، ويعلوه جبل عال يسمى بجبل « مونت ترابانى » حيث يسجى جثمان « أبى أنياس » .

رحلنا عن هذا المكان وأبحرنا حول الجزيرة متجهين ناحية الشرق حتى بلغنا « جرجنتى » ، ثم مضينا إلى مدينة سرقوسة اللطيفة التابعة للملكة أرجونة أخت مولانا الملك جوان، ثم جئنا بعدئذ إلى «قطالونيا» الواقعة على منحدرات جبل « إتنا » ثالث أبواب الجحيم ، فاستبضعنا وأوسقنا السفينة بالبضاعة، ثم أبحرنا بعد ثلاثة أيام ميممين شطر سردينيا ، لكن فاجأتنا فى وسط البحر ريح شرقية قادمة من اليونان دفعتنا تجاه تونس ، فظللنا مبحرين يوماً وليلة حتى بلغنا فى الساعة الثالثة من اليوم التالى رأس « بلانكو » وهى ميناء تونس، فألحّت بى الرغبة فى النزول إلى الشاطىء لمشاهدة البلدة فلم يأذن لى القائد بذلك لأنه كان قد اعتزم الرحيل لتوه .

* * *

وميناء تونس شديد الضحالة فلا تستطيع السفن دخولها ، من ثم فإنها تفرغ حمولتها فى قوارب خفيفة ، وقد بقينا هناك يوماً واحداً ثم أبحرنا مدة يومين وليلتين حتى جئنا إلى جزيرة سردينية التابعة لملك أرجونة،ودخلنا ميناء « كالياري » وهو مكان لطيف ؛ فأفرغنا به ما معنا من البضائع وأقمنا به يومين .

وهذه الجزيرة غير صحية هى ذات هواء سيء وماء ردىء . . .

(هنا ينتهى ما هو موجود من خبر الرحلة) .

حـــوائى

رحلة طافور

(١) كان دوق هنرى كونت لبلة أحد فرسان عصره البارزين ، ويظهر أن هجومه على جبل طارق قد وقع فى ختام سنة ١٤٣٥ حيث نستدل من كلام طافور فيما بعد (انظر الفصل الثانى ص ١١ حاشية رقم ٩) على موعد وصوله إلى جنوة ، وهناك كثير من المؤرخين يجعلون وفاة الدوق هنرى فى سنة ١٤٣٦ ، ويلاحظ أن خبر الثورة فى جنوة بلغ مسامع الملك جوان فى مستهل يناير ١٤٣٦ (انظر Cronica de Don Juan II. Ch. III.)

(٢) الملك الذى نسمع عنه كثيراً فى قصة طافور هذه هو خوان الثانى ملك قشتالة (١٤٠٦ — ١٤٥٤ م) ، وقد تزوجت ابنته إيزابلا الكاثوليكية من فرديننند صاحب أراجون .

(٣) المقصود بذلك ليلة عيد ميلاد ١٤٣٥ م .

(٤) لا نستطيع الجزم بمن كان الدوج فى ذلك الوقت أهو توماس فريجوزد ، أم أزنار دو جاركى ؟ .

(٥) صورت الأسطورة المتعلقة بنشأة جنوة على حوائط كنيسة سنت لورنزو ، انظر فى ذلك Carden Genco, (London, 1908), p. I.

(٦) كانت « الساكرو كونتيو » جزءاً من الأسلاب فى قيصرية عام ١١٠١م وهى مصنوعة من الزجاج ، وقد أرسلت إلى باريس وعرضت هناك سنة ١٨١٥ ، ونظراً لعدم العناية بها فقد تحطمت فى الطريق .

(٧) حدث فى سنة ١٣٧٣ أن قتل بعض التجار الجنوية مما أدى إلى إرسال أسطول إلى قبرص وجىء بالملك بطرس الثانى أسيراً مع عمه ، وفرضت عليها غرامة كبيرة ، وسلمت « فاماجوستا » إلى الجنوية كجزء من الفدية التى قررت لإطلاق سراح الملك ، أما الطفل الذى ولد فى جنوة فكان ابن العم وأصبح فيما بعد يعرف بالملك جانوس الثانى ومات سنة ١٤٣٢ ، ويلاحظ أن ابنه جانوس الثالث كان يتولى العرش وقت زيارة طافور لقبرص ، انظر Stubbs : Lectures on Medieval and Modern History. pp. 226—228.

(٨) كان الملك إذ ذاك ـ أعنى وقت زيارة طافور للجزيرة ـ هو جانوس الثالث ، وفى المراجع العربية المعاصرة كالسلوك للمقريزي وإنباء الغمر لابن حجر وعقد الجمان للعينى والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن إشارات متعددة لدفعه الجزية لمصر .

(٩) ليس من شك فى أن جنوة بلغت مبلغاً كبيراً من النشاط التجارى فى إبان هذه الفترة ، غير أن المؤامرات الداخلية الكثيرة كانت عائقاً يقف فى سبيل ازدياد هذا النشاط إلى الحد الذى يمكنها به أن تكون منافسة للبندقية ، بل إن جنوة اضطرت تحت ظروف خاصة لقبول السيادة الأجنبية عليها فدانت للألمان ثم لأهل ميلانو ، أما الاضطرابات التى يشير إليها طافور فى المتن والتى كان هو شاهد عيان لها فقد ترتبت على هزيمة ألفونسو صاحب أراجون على يد الجنوية وأسرهم إياه فى معركة بحرية أمام بونزا Ponza وذلك فى أغسطس ١٤٣٥ ، هذا وقد كان ألفونسو طالب بمملكة نابلى عند موت جوانا الثانية وبذلك دخلت جنوة ميدان النزاع ، ولما تم للجنوية أسر ملك أرجونة غضبوا إذ رأوا أسيرهم يؤخذ إلى ميلان حيث تلقاه دوقها بالترحاب وحالفه واتخذه صديقاً ، هـذا وقد وقعت الثورة التى يشير إليها طافور بالمتن فى ديسمبر عام ١٤٣٥ ، وفيها لقى الحاكم « أوبزينو » مصرعه ذبحاً ، راجع Carden: Geneo. pp. 89 seq.

(١٠) كان الكونت Francesco Sforza (١٤٠١ — ١٤٦٦) فى هذا الوقت بالذات مشغولا بالحرب ، إذ حارب فى صف ميلان ضد البندقية ، أما الآن فكان يحارب من أجل البابا والبندقية وفلورنسة ضد ميلان .

(١١) كان نيكولا Piccinino (١٣٨٦ — ١٤٤٤) واحداً من أفظع القاتلين وقطاع الطرق وأقساهم قلبا .

(١٢) سترد الإشارة فيما بعد بالتفصيل إلى فلورنسة وذلك فى الفصل الثامن والعشرين من رحلة طافور هذه .

(١٣) المقصود بذلك البابا يوجين الرابع (١٤٣١ — ١٤٤٧) الذى كان قد فر من رومة إلى فلورنسة فى يونيو ١٤٣٤ وذلك عقب مقاومته لقرارات مجمع « بازل » المنعقد فى سنة ١٤٣١ ، وكان يوجين الرابع هذا قد أمر بفض جلسات

مجمع بازل رغم معارضة أعضائه الذين اعتبروا جلساتهم مستمرة ومفتوحة ، وقد عاش البابا ثمانى سنوات فى المنفى الإرادى الذى اختاره لنفسه ، ووجد أن خير وسيلة لمحاربة مجمع بازل هو عقد مجمع آخر فى Ferrara عام ١٤٣٧ ، وقد اتخذت فى هذا المجمع الأخير خطوة هامة هى بحث محاولة القضاء على الخلافات القائمة بين الكنيستين الرومانية والبيزنطية ، راجع فى ذلك :

Gregorovious : Rome in the Middle Ages, (Eng. Translation). Vol. VII, pt. I, p. 46.; Lodge : The Close of the Middle Ages.

(١٤) كان حاكما إذ ذاك هو نقولا الثانى (١٣٨٣ — ١٤٤١) ويعتبر المركز الثانى عشر من حكامها ، انظر أيضاً فيما بعد الفصل الحادي والعشرين من هذه الترجمة العربية .

(١٥) انظر ما كتبه طافور تفصيلا عن البندقية فى الفصل العشرين من هذه الرحلة .

(١٦) كان خان السمكة هذا من أشهر الخانات فى العصور الوسطى إبان هذه الحقبة .

(١٧) فيما يتعلق بروما عام ١٤٣٦م انظر Gregorovious : Rome in the Middle Ages, VII, pt. I, p 89 وقارن الملاحظات التى جاء بها طافور فى هذا الفصل عن الحيوانات الضارية فى روما بما جاء فى الكتاب المذكور (ج ٦ ق ٢ ص ٦١٨) حيث يشير إلى أن القوم قتلوا خمسة من الذئاب الكبيرة عام ١٤١١ كانت تسرح فى حدائق الفاتيكان .

(١٨) فيما يتعلق بكنيسة بطرس راجع : Marucchi : Basiliques et Eglises de Rome (1909), p. 110 وما تضمنه من الرسم والخرائط ، أما أساس الكنيسة الحالية الموجودة الآن فقد وضع فى سنة ١٥٠٦ .

(١٩) كان الذى وضع المسلة فى المكان الموجودة به الآن هو Sixtus V فى سنة ١٥٨٦ ، وكانت العقيدة الشائعة بين الحجاج هى أن كل من يسير زحفاً على ركبتيه تحت هذه المسلة تجب خطاياه وتغفر ذنوبه ، انظر فى ذلك : F.M. Nichols, The Marvels of Rome, Lond., (1899). pp. 71—73 & notes.

(٢٠) الأرجح أن هذا إشارة إلى تمثال ماركس أوريليوس الذى كان يقوم إذ ذاك فى مواجهة الكنيسة ، انظر فى هذا E. Rodochanachi : The Roman Capitol (Eng. Trans.) p.p. 131 ff.

(٢١) فيما يتعلق بالروايات والأساطير المتعدّدة المتعلقة بهذا الأمر راجع F.M. Nichols : The Marvels of Rome (1889) pp. 62, 102; G. Mc. N. Rushforth : in The Journal of Roman Studies (1919), p. 14.

(٢٢) فيما يتعلق بأسطورة أوجستوس والتنبؤ بولادة المسيح ، انظر : Nichols: The Marvels of Rome, pp. 35,90.

(٢٣) يقصد بذلك البانثيون .

(٢٤) Nichols : op. cit. p. 11.

(٢٥) يرجع قيام الكنيسة الموجودة حالياً وهى المعروفة بكنيسة S. Paolo alle Tre Fontane إلى سنة ١٥٦٠ م ، أما طافور فيشير إلى كنيسة S. Anastasios alle Tre Fontane التى أهديت عام ١١٩٠ إلى القديس برنارد الذى أوجد هناك ديراً للرهبان البيض .

(٢٦) .لا نعرف مصدراً آخر لهذين النصين .

(٢٧) هو براشيو دا مونتانى Braccio de Montane (١٣٦٨ — ١٤٢٤) وكان أحد المحاطرين الأشقياء وخصما عنيفاً لسفورزا .

(٢٨) كان الكونت حينذاك هو Guidi Antonio da Montefeltro ابن أنطونيو كونت أوربينو ومونيفلترو ،وقد خلفه فى عام ١٤٠٤ ، وفيما يتعلق بكلام طافور حول معهودتيه راجع : Dennistonn: Memoirs of the Dukes of Urbino (1851), I, pp. 38 seq.

(٢٩) أنظر ما يلى ص ١٦٢ وما بعدها .

(٣٠) عرف ملك نابلى Ladislaus بالشجاعة والقدرة (١٣٨٦ — ١٤١٤م) وقد باع مدينة زارا إلى البندقة عام ١٤٠٩ بمبلغ مائة ألف أفلورنتى، ويلاحظ أن كورفو مع بقية الجزائر الأيونية قد آلت إلى البندقية فى أعقاب الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٥ كجزء من نصيبهم فى غنائم هذه الحرب وفى أثناء توزيع تركة الإمبراطورية البيزنطية ،علماً بأن سيطرة البندقة التامة لم تحدث إلا سنة ١٣٦٨ .

(٣١) راجع وصف الجزيرة والدير فى Fabri . op. cit. I, p. 184.

(٣٢) ورد وصف مطوّل لمودون فى : M. M. Newett ; Canon Pietro Casola's Pilgrimage (1494), Manchester,1907, pp. 191 ff ويلاحظ أن المورة آلت فى سنة ١٢٠٤ إلى البندقية باعتبارها جزءاً من نصيبها فى تركة الإمبراطورية البيزنطية . وقد نجح الترك فى الاستيلاء عليها عام ١٥٠٠ م .

(٣٣) Cf. W. Miller: Essays on the Latin Orient (Cambridge,1921)' pp. 281 ff.

(٣٤) آلت جزيرة إقريطش إلى البنادقة سنة ١٢٠٤ ، غير أن الأهالى لم يرضخوا لهذه الأيلولة فكانت الثورات دائمة الشبوب ضد البنادقة ، ويظهر أن طافور يشير إلى ثورة ١٣٦٢ ، انظر عنها W. Miller : op. cit. pp. 183 seq.

(٣٥) نجح فرسان الاسبتارية أو فرسان القديس يوحنا فى الاستيلاء على رودس عام ١٣٠٩ واستحوذوا على أملاك الفرسان الداوية سنة ١٣١٢ ، ولكنهم أخرجوا من رودس عام ١٥٢٢ م ، وسنرى طافور يعود فيما بعد إلى رودس حيث يصف انتخاب كبير الفرسان أما Collachium التى يقال إنها مشتقة من الكلمة اللاتينية Colligere فكانت جزءاً من المدينة التى تتجمع فيها مبانى الفرسان الرئيسية والتى يقيم بها الفرسان،انظر خريطة رقم٢٢ فى De Balabre : Rhodes of the Knights, Oxford, 1908, p. 96

(٣٦) فيما يتعلق بمهاجمة المماليك لحصن قشتيل الروج بعد ذلك ببضع سنوات راجع: H. Habashi : Egyptian Expeditions Against Castelrosso and Rhodes (A.F.A.A.S.U., 1961)

(٣٧) فيما يتعلق بهذه الناحية راجع E. S. Bates: Touring in 1600 (Lond.) , 1911, p. 210, Fabri. op. cit. ,W. Davies . Bernard von Breydenbech & his Journey to the Holy Land.

(٣٨) عرّفها ابن عبد الحق البغدادى : مراصد الاطلاع (نشر على محمد البجاوى)٢/٥٩٧ بأنها من قرى بيت المقدس .

(٣٩) كان أحد قواد الحملة الصليبية الأولى ونجح فى الوصول إلى بيت المقدس حيث كان انتزاعه من المسلمين على يده ، كما اختاره زملاؤه فى السلاح حينذاك أول ملك لبيت المقدس ، لكنه تخلى عن هذا اللقب تديناً ورفض أن يضع التاج

على مفرقه فى مكان وضع السيد المسيح عليه السلام الشوك فيه على هامته، واكتفى بأن يسمى « بحامى القبر المقدس » .

(٤٠) على الرغم من مألوف العادة فى كتابتها فى العربية بالسين، وورودها على هذه الصورة فى التوراة ، إلا أننا آثرنا كتابتها بالصاد ، حيث نص على ذلك ابن عبد الحق البغدادى فى مراصد الاطلاع ٩١١/٢ وقال فى شأنها « إنها بليدة قرب بيت لحم من نواحى بيت المقدس » » .

(٤١) وذلك إشارة إلى قصة شك توما فى قيام المسيح .

(٤٢) كانت العادة قد جرت بفتح كنيسة القبر المقدس مرتين فقط فى السنة ، ويبقى الحراس داخل الكنيسة حتى وصول حجاج الموسم التالى (انظر Fabri: op. cit, 428) ويتناولون طعامهم مما يعطونه من فتحات فى الباب ، وقد ترك لنا فابرى وصفاً رائعاً لليلة قضاها فى القبر المقدس . ويمكن للقارىء إذا أراد الوقوف على وصف الكنيسة والأحرام المقدسة مراجعة G. Jeffery: A Brief Description of the Holy Sepulchre (Cambridge: 1919).

(٤٣) جاء بعد هذا ما يشير إلى نص القبرية ولكن لم يرد هذا النص وكذلك الحال فى القبرية على شاهد أخيه بلدوين .

(٤٤) يتفق ابن عبد الحق البغدادى (مراصد الاطلاع ٢٣٨/١) مع طافور فى وصف صغر بيت لحم حيث يقول عنها « بليد قرب البيت المقدس » ثم يعقب على ذلك قائلا « المشهور أن عيسى عليه السلام ولد به » .

(٤٥) كانت ترجمته إياه فى القرن الرابع للميلاد وهى التى أقرتها الكنيسة الرومانية وسمتها Lectio Volgata

(٤٦) نص العبارة مبارك الربّ إله إسرائيل .

(٤٧) يوجد وصف لفواكه البحر الميت فى Curzon : Visits to Monasteries in the Levant (ed. by D. G. Hogarth, Oxford, 1916), p. 228.

(٤٨) جاء فى تعريفها فى مراصد الاطلاع ٦٣/١ أنها كلمة عبرانية : مدينة الجبارين فى الغور .

(٤٩) يعنى السيد الفرنسى القتيل .

(٥٠) يقول ماندفيل إنه رآه من داخله ، كما وصفه المؤرخ وليم الصورى ، والمقصود بذلك مسجد عمر .

(٥١) فى وصف هذا الاحتفال راجع Rohricht : Doustche Pilgerreisen, p. 21, & Favine: Theatre of Honour, p. 383.

(٥٢) قال مراصد الاطلاع ١٣٤٨/٣ فى شأنها « قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلا ، منها اشتق اسم النصارى لأن المسيح سكنها فنسب إليها » .

(٥٣) راجع فى هذا الشأن A. S. Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages,

(٥٤) انظر ما سبق ص ١٠ حاشية رقم ٧ .

(٥٥) وتسمى Ines أو Agnes of Lusignan وهى أخت جانوس الثانى ملك قبرص .

(٥٦) وهو جانوس الثالث بن جانوس الثانى ، وقد ولد عام ١٤١٥ م وتولى بعد أبيه العرش سنة ١٤٣٢ ، وكان رجلا ضعيفاً فاسداً ، وحينما وافاه الموت عام ١٤٥٨ كان البيت الملكى فى الواقع قد انقرض ، ولم يترك من الأبناء الشرعيين سوى فتاة اسمها شارلوت خلفته على العرش ، ولكن الأمر إذ ذاك كان قد أصبح منازعة بين البنادقة والجنويين فى أيهما يملك الجزيرة التى استولت عليها البندقية تماماً عام ١٤٨٩ وظلت فى حوزتها مدة اثنتين وثمانين سنة ضد الأتراك العثمانيين ، أما الكردينال فهو Hugo de Lusignian أخو جانوس الثانى .

(٥٧) يصف أحد مشاهدى العيان (Monstrelet, ch. XXXIX) قيد الأسرى كل اثنين معاً ، وقد أركبوا الملك بغلاً .

(٥٨) يقول مونستريليه (شرحه) إن هذا الفارس اسمه Sir Galeran Savary وأنه ألقى بنفسه على الملك صائحاً بالعربية « هذا هو الملك » ، ويلاحظ أن جانوس الثانى قد نهب الساحل المصرى وأثار غضب السلطان المملوكي الذى غزا الجزيرة عام ١٤٢٦ م وأسر الملك واستمر أسره مدة خمسة عشر شهراً ، ثم فك أسره بعد دفع جزية كبيرة وعاد محطم القلب حيث مات سنة ١٤٣٢ .

(٥٩) فيما يتعلق باستعمال الحمام الزاجل انظر :

Mario Esposito : Pilgrimage of Symon Semeonis (in) Geogr. Journal. Nov. 1917, p. 349: Schillberger : Bondage and Travels (Hakluyt Society) p. 53, and Rohricht : op. cit. p. 24.

(٦٠) يعنى بذلك مصر القديمة الحالية .

(٦١) Schillberger : Bondage and Travels, p. 51.

(٦٢) المطرية قرب القاهرة « عندها الموضع الذى فيه شجر البلسان الذى يستخرج منه الدهن وليس ذلك فى موضع آخر » ، انظر مراصد الاطلاع ١٢٨٤/٣ .

(٦٣) أطال Mendville, Ch. VII فى وصف البلسم وتجارته التى يحتكرها المسلمون لبيعه لجماعات النصارى .

(٦٤) فيما يتعلق بهذه التسمية للأهرام انظر : Esposito : The Pilgrimage of Symon Symeonis (in) Geogr. Journal. 1918, Febr., p. 87.

(٦٥) مكيال الخروبة يعادل ٤ جالونات .

(٦٦) لقد رأى سيمونيز هو الآخر الفيلة وزرافة بالقاهرة ، انظر :

Geogr. Journ., Febr., 1918, p. 86.

(٦٧) أى ستة عشر قدماً .

(٦٨) لقد شاهد كيرزون نفس الأمر لكن بعد أربعمائة سنة ، انظر :

Visits to the Monasteries in the Levant, p. 98.

(٦٩) كان اللعب بالكرة من الألعاب المحببة إلى سلاطين مصر المملوكية ، وهى المعروفة الآن بالبولو .

(٧٠) كانت الرحلة إلى جبل سيناء تجربة قاسية خطيرة ، قل أن يكررها الحاج مرة أخرى ، أما فيما يتعلق بالرحالة المتأخرين فانظر: Bates : Touring in 1600 (Lond., 1911) pp. 223, Röhricht : Deutsche Pilgerreisen, p. 23 ، ويوجد وصف رائع للدير فى وقتنا الحاضر ومكتبته فى : A. Mary R. Dobson : Mount Sinai, a Modern Pilgrimage (Lond., 1925). ولقد ظلت تجارة المومياء حتى القرن الثامن عشر .

(٧١) كان من البلاد التى زارها نيكولودى كونتى بلاد فارس وبعض أقاليم هندستان الداخلية وجزيرة سيلان وسومطرة وجاوة ، ثم رحل إلى الصين ، فلما كان فى طريق عودته سار مصاقباً لساحل الحبشة وركب البحر الأحمر حتى بلغ القاهرة حيث ماتت زوجته وأولاده وعاد إلى البندقية بعد غيبة عدة أعوام عنها ، وراح يلتمس غفران البابا له على تركه ملته ، فطلب إليه البابا أن يقص خبر رحلاته على سكرتيره الخاص Poggio Bracciolini الذى كتبها باللغة اللاتينية، وقد أصدرت جمعية هاكلويت عام ١٨٥٧ ترجمتها الإنجليزية بعنوان India in the 15th Century ، على أن المقارنة بينها وبين ما رواه طافور فى المتن هنا تشير إلى أن ما رواه نيكولودى كونتى لطافور يتضمن أموراً خلت منها نسخة « بوجو » .

(٧٢) هو ملك الهند المسيحى الخرافى ، وقد وردت الإشارة إليه أول مرة فى كتاب لأوتو أسقف فريزنجن سنة ١١٤٥ م ، وفى عام ١١٦٥م انتشر فى أوربة خطاب قيل إنه موجه من « بريستر جون » إلى الإمبراطور البيزنطى مانويل ، ويختفى بريستر جون بعدئذ من الهند ليظهر فى الحبشة ، انظر : F. Zaruche Der Priester Johannes, 1876—79; Yule: Cathay and the Way Thither, (Hakluyt Society).

(٧٣) لم نقف لهذه الطائفة على خبر .

(٧٤) انظر حاشية رقم ٧٢ .

(٧٥) وتعرف قمته « بقمة آدم » حيث يقال إن قبره موجود بها وهى شديدة الانحدار لا يستطاع تسلقها إلا بالسلاسل ، انظر :

C.R. Beazley: The Dawn of Modern Geography, III, pp. 137, 269, 309.

(٧٦) شاهد ابن بطوطة مثل هذا الأمر فى بلاط أحد الملوك التتار ، انظر أيضاً
Yule : Marco Polo (3rd ed.) II. p 349.

(٧٧) فيما يتعلق بمعرفة طافور السابقة بقبرص انظر ص ٥٤ وما بعدها.

(٧٨) تزوج الملك جانوس الثانى مرتين إحداهما بابنة مركيز دى مونتفرات وثانيهما بهيلين باليولوجس ابنة تيودور التى أنجب منها ابنة واحدة هى شارلوت التى خلفته على العرش .

(٧٩) انظر ما سبق ص١١ .

(٨٠) اختير أنطون فلوفيان الأراجونى الجنسية عام ١٤٢١ رئيساً للفرسان الاسبتارية ومات فى التاسع من أكتوبر ١٤٣٧ ، وانظر أيضاً : De Balabre : Rhodes of the Knights, p. 19.

(٨١) وقع الاختيار على « جان دى لاستيك » الذى مات يوم ١٧ أغسطس سنة ١٤٥٤ .

(٨٢) هو Louis de Amaral y Costa الذى أرسله جون ملك البرتغال إلى مجمع بازل ، وكان هذا الأسقف فى تلك الآونة فى الشرق فى سفارة إلى الإمبراطور البيزنطى ؛ كما أنه كان أحد المبعوثين الذين أسروا مع طافور — قرب مينز كما سيرد فيما بعد فى الفصل الخامس والعشرين .

(٨٣) كان هذا رسالة السيد الأعظم رئيس الفرسان الصادرة عام ١٤٤٥ م يطلب فيها المال والرجال للوقوف ضد الاستعدادات التى أعدها السلطان جقمق لمهاجمة الجزيرة .

(٨٤) انظر ص ١٢٤ فيما بعد .

(٨٥) ظلت جنوة تحكم خيوس من سنة ١٣٤٦ حتى ١٥٦٦م ، وكان يشرف على إدارتها هيئة تسمى Maona ، ويطلق على أعضائها Maonesi ، انظر فى ذلك Miller : Essays on the Latin Orient, p. 298.

(٨٦) بعد استرداد البيزنطيين للقسطنطينية عام١٢٦١ استقر الجنوية فى « بيرية » حيث فرضوا قوانينهم وولاتهم وأخذوا من هناك يشرفون على تجارة البحر الأسود ،

وكان أهم مركز فى « كافا » التى زارها طافور فيما بعد ، انظر ص١٣٣ وما بعدها من هذه الترجمة وراجع أيضاً : Heyd : Hist. du Commerce du Levant, t. I, p 436 ويوجد وصف لميناء بيريه فى Clavijo : Embasy to Samarcand (1403—6). pp. 47—8. هذا وقد اختفت هذه الجالية مع الإمبراطورية ، انظر ص ١٥٤ .

(٨٧) كان هذا هو الإمبراطور الذى نفاه أخوه ويذكر طافور ص ١٣٢ أنه قابل الإمبراطور المغتصب فى طرابيزون .

(٨٨) غير معروف على وجه التحقيق تاريخ قيام هذه الجماعة من الفرسان ، لكى يظهر أنه أنشأها جوان الثانى ملك قشتالة عام ١٤٢٠ لجذب الأشراف والأفضال للانخراط تحت رايته ، وكان أعضاؤها يقطعون على أنفسهم اليمين بالدفاع عن المملكة ضد المسلمين ،والطاعة حتى الموت فى سبيل الدين .

(٨٩) أراد الإمبراطور البيزنطى يوحنا الثامن باليولوجس — وقد هدده الأتراك — أن يحوّل المنازعات التى أثارها مؤتمر بازل لصالحه ، ولقد رحل الإمبراطور إلى أوربة يوم ٢٤ نوفمبر ١٤٣٧ ، وكان طافور شاهد عيان لرحيله حيث لقيه فى فرارا مرة ثانية (ص ١٨٣) ، وقد رفض الشعب اليونانى الوحدة المذهبية مع كنيسة روما،وكان موت الإمبراطور سنة ١٤٤٨ حيث سقطت القسطنطية فى يد الأتراك بعد خمس سنوات ، راجع فى هذا : Cambridge Medieval History; IV, pp. 621 ff.

(٩٠) فى سنة ١٢٠٤ قام أسطول صليبى من الفرنسيين والألمان والبنادقة وانحرف عن وجهته الصليبية واستولى على القسطنطينية التى استردها اليونان عام ١٢٦١ .

(٩١) سيرد وصف الجياد والأعمدة فيما بعد ص ١٧٢ .

(٩٢) بعد سقوط القسطنطينية تجمّع اليونان فى نيقية وقد نجح ميخائيل باليولوجس الذى تزوج من إحدى أميرات البيت الإمبراطورى فى استرداد

القسطنطينية يوم ١٥ أغسطس ١٢٦١ ووضع التاج على رأسه فى كنيسة القديسة صوفيا ، انظر Cambridge Medieval History ,IV, P. 427 ff

(٩٣) سمى بعدئذ قسطنطين الحادى عشر باليولوجس ، وقدمات بعد الاستيلاء على القسطنطينية .

(٩٤) كان هذا يوم ٢٤ نوفمبر ١٤٣٧ .

(٩٥) كانت طرابيزون إذ ذاك عاصمة الإمبراطورية البيزنطية المستقلة التى أقيمت فى أعقاب الفتح اللاتينى للقسطنطينية عام ١٢٠٤م ، وكان الإمبراطور يوحنا الرابع كومنين قد اغتال أباه ، والمعتقد أن الأب ألكسيوس الرابع قد ظل على قيد الحياة حتى عام ١٤٤٦م ، على حين أنه يستفاد من رواية طافور على أنه قد مات سنة ١٤٣٧ أوفى مستهل ١٤٣٨ ، ولذلك فإن ماذكره Finlay: Greece, Vol IV p. 399 يحتاج إلى مراجعة وتصحيح ، ويوافق وليم ميللر على ما جاء فى طافور ، أنظر English Historical Review, 1923.p. 409 ، هذا ويلاحظ أن السلطان العثمانى محمداً الفاتح قد نجح فى سنة ١٤٦١ فى ضم طرابيزون للأملاك العثمانية ، ويمكن للقارىء أن يطالع وصفا لها عام ١٤٠٤ فى Clavigo: Embassy to Samarcand Hakluyt Society, p.92.

(٩٦) كانت كافا تشغل مكانة أكبر من أن تقتصر على أن تكون مركزاً للتجارة الجنوية فى الشرق ، إذا كانت هى وه غلطة » العاصمة التجارية للشرق اللاتينى ، وربما أمكن القول بأن استقرار الجنوية هناك قد تم قبل عام ١٢٠٤ م ولكن وجود الجالية الكبيرة قد نجم عن استعادة اليونان لبلادهم عام ١٢٦١ ، ونستدل من وصف Schiltberger (حوالى عام ١٤٢٠ م) على أن كافا كانت محاطة بفصيل مزدوج وبها ستة آلاف دار فى الفصيل الضيق ، وأربعون ألف دار فى الفصيل الأوسع ، وكانت قاعدة أبرشية بعثة تبشيرية كبرى وكان بها ستة أنواع من الملل والمذاهب، انظر: Schiltberger Bondage and Travels, Hakluyt Society. PP. 49-50; Beazley: Dawn of Modern Geography, III, PP. 371 377, II, P. 453.

(٩٧) كانت كلتا Tana ، Ryxabaque تطلقان على بحر أزوف، أما بحر «باكو» فهو بحر قزوين .

(٩٨) قارن ذلك بما كتبه شلتبرجر (ص ٤٨) حيث يقول « إنهم يأخذون قطعة من اللحم ويقطعونها إلى شرائح ، ويضعونها تحت السرج الذى يركبون عليه ، ويأكلونها حين يحسون بالجوع ، ولكنهم يعلمونها أولا، ويظنون أنها بذلك لاتفسد لأنها تصبح جافة بسبب دفء الحصان ، وتصبح لينة تحت السرج من جراء الركوب».

(٩٩) كان نهر الدون واجداً من نقط البداية الكبرى للطرق التجارية إلى الصين ، انظر فى ذلك C. R. Beazley: op. cit. Vol. II, pp. 455 ff.

(١٠٠) خبر هذه السفارة (١٤٠٣ — ١٤٠٦ م) وارد فى ربى كونزالز دى كلافيجو فى ترجمة سير كلينتمس مرخام ، عام ١٨٥٩ .

(١٠١) فيما يتعلق بهذه الطائفة انظر : W. R. Lethaby & H. Swainson Santa Sophia, 1896, PP. 19,196 ويقول كلافيجو إن عشرة من الأغربة كانت تستطيع السير هناك (ص٣٨) ، وهذا المكيال يعادل الواحد منه ٥١٦ لتراً .

(١٠٢) هذا فى الواقع هو تمثال جستنيان الذى حطمته صاعقة عام ١٤٩٢ م، ويوجد رسم رائع له فى مكتبة سراى ، وقد نقله J. Ebersolt : Constantinople Byzantine et les Voyageurs du Levant, Paris, 1919 4. 80. ولقد نجح « بيير جيل P. Gilles » المؤلف والعالم الطبيعى الذى أرسله فرنسيس الأول ملك فرنسا عام ١٥٤٤ إلى الشرق فى العثور على أجزاء من هذا التمثال ، وهى أجزاء ضخمة ، فكانت الساق تتجاوز قامة الرجل ، كما أن طول الأنف كان تسع بوصات.

(١٠٣) رأى كلافيجو (ص٤٠٣) هذه الصورة فى كنيسة القديسة ماريا ديستزيا ويقول إنها شديدة الثقل حتى أنها كانت تتطلب أربعة رجال لحملها فيما بينهم بواسطة حبال من الجلد انظر Embassy to Samarcand P.44. وقد تحطمت هذه الصورة حين دخل الأتراك المدينة ، إذ مزقها الإنكشارية إلى

قطع صغيرة للهو بها ؛ انظر W. H. Hutton: Constantin oplo (Mod. Towns Series) P.P. 263,266 ويبدو أن الصورة كانت تحفظ — بين وقت آخر — فى مختلف الكنائس .

(١٠٤) الأرجح أن هذه هى كنيسة « بلاشيرن » وقد رآها أطلالاً « جيلز » عام ١٥٤٤م انظر Ebersolt : Constantinople Byzantine et les Voyageurs du Levant, p. 81.

(١٠٥) كنيسة « المسيح ضابط الكل » Pantokrator شيدها يوحنا كومنين وزوجته إيرين التى توفيت سنة ١١٢٤ ، وهى فى الواقع ثلاث كنائس بعضها داخل بعض ، أما الوسطى منها فكانت ضريح آل كومنين .

(١٠٦) يعنى بذلك الهبدروم وعمود السربنت . وقد عمد قسطنطين إلى نقل العمود من دلفى ، وكان العمود يحمل فى بداية إقامته الركيزة الثلاثية الذهبية التى كرسها اليونان لأبولو بعد انتصارهم على أجزرسيس فى بلاتاى Platea ، ويمكن مطالعة أسماء المدن المدونة على أسطوانتها ، أما الرءوس الثلاثة فقد اختفت منذ زمن بعيد ، وواحدة منها فى المتحف ، أما فيما يتعلق بتاريخ العمود والنقوش فانظر Pausanias's Description of Greece; Vol. V, pp. 299 ff.

(١٠٧) لا نعرف على وجه التدقيق أى تمثال يشير إليه طافور ولا القصة الموجودة فى كتابات الرحالة الآخرين .

(١٠٨) من الممكن أن تكون هذه إشارة إلى الأسطورة المتعلقة بحمامات Zeuxippus التى كانت ملاصقة للقصر وللهبدروم .

(١٠٩) جاء تيودوسيوس بهذه المسلة من هليوبوليس وظلت باقية فى مكانها الذى وضعت فيه .

(١١٠) لم يبق من المبانى التى كانت تؤلف القصر الإمبراطورى سوى بعض الأطلال ، ولا شك فى أن الإشارة إلى المكتبة ذات أهمية خاصة وذلك لوجود نقاش كثير حول مكانها .

(١١١) ضرب الترك فى عام ١٤٢٢ حصاراً حولها استمر من يونيو إلى أغسطس

لـكنهم ما لبثو أن رفعوه ، وحينذاك عقد الإمبراطور السلم لـكن على شرط قيامه بدفع جزية ضخمة ، وتخليه لهم عن كثير من الأماكن الواقعة على البحر الأسود ، انظر Cambridge Medieval History, Vol. IV, pp. 689, 60.

(١١٢) تشغل بروصة السفوح السفلى من جبل أولمبس ميزيان ، ويقال إنها تأسست بناء على إشارة من هانيبال ، وقد استولى عليها الترك عام ١٣٢٧ بعد حصار استمر عشرة أعوام وبقيت عاصمة لهم حتى انتقل مراد الأول إلى أدرنة .

(١١٣) وتعرف اليوم بأزميد ، وقد جاء فى لى استرانج : بلدان الخلافة الشرقية (ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد) ص ١٩٠ أن العرب الجغرافيين الأوائل عرفوها باسم « نقوميديا » وهى تعريب لـكلمة Nicomedia ، وسماها الترك « أزنـكميد » .

(١١٤) فيما يتعلق ببيره راجع ما سبق ص ١١٥ .

(١١٥) استردت سالونيكا بعـد كثير من الأحداث وأخذت من البندقة عام ١٤٣٠ ، وقد بيع سبعة آلاف من سكانها رقيقاً ، انظر : Cambridge Medieval History, Vol. IV, p. 690, W. Miller : Essays on the Latin Orient, 1921, pp. 279 ff.

(١١٦) انظر ما سبق ص ٣٥ .

(١١٧) كان تاريخ عودة طافور إلى البندقية هو ٢٢ مايو ١٤٣٨ .

(١١٨) يمكن للقارىء أن يستزيد عن هذا الخبر والأحداث التى أعقبته فى : Hazlitt: Venetian Republic, 1 st ed. I, p. 420 أما البابا فهو اسكندر الثالث ، وتذهب الرواية إلى أنه قدم إلى البنـدقية متنكراً عام ١١١٧ م ومضى إلى دير كريتا Carita حيث استقباوه كقسيس بسيط أو — حسب رواية أخرى — مساعد طاه ، ويقـال إن الذى عرفه هو رجل فرنسى اسمه Comodo ، ويلاحظ أنه ليس ثم أساس تاريخى لهذه القصة ، انظر : G. Tassini : Curiosita Veneziane, 4 th. ed. Venice, 1887. p. 148

وقد حدثت هذه المعركة البحرية يوم ٢٦ مايو ١١٧٧ ، وكان اندحار الألمان فيها نهائياً ، وتشير ثلاث لوحات من الرخام الأحمر فى سقيفة باب كنيسة القديس مرقص إلى البقعة التى ركع فيها فردريك وأنهضه البابا وقد أغرورقت عيناه بدموع الفرح ومنحه قبلة السلام ، أما القصة التى يرويها طافور ويشير فيها إلى كيفية وضع البابا قدمه على رقبة الإمبراطور - وهو منبطح على الأرض - فمتأخرة تاريخياً ، والصورة لا تزال موجودة فى صالة الاحتفالات الكبرى بقصر الدوج .

(١١٩) من المحتمل أن تكون الجياد البرونزية الشهيرة هى التى علت أقواس النصر لتكريم نيرون ومن بعده تراجان ، وقد بعث بها قسطنطين إلى القسطنطينية حينما جاء بها الدوج داندولو إلى البندقية عام ١٢٠٤ م .

(١٢٠) بدىء فى إقامة الـ Campanile عام ٨٨٨ م ثم أعيد بناؤه فى سنتى ١١٤٨ ، ١٣٢٩ م ، وقد سقط يوم ١٤ يوليو ١٩٠٢ ثم جدد مرة أخرى .

(١٢١) شيد العمودان المصنوعان من الجرانيت عام ١١٨٠ ، وكان أحدهما يحمل أسد القديس مرقص ، والآخر أسد القديس تيودور — وليس القديس جورج — على تمساح وهو حامى الجمهورية القديم قبل وصول رفات القديس مرقص من مصر عام ٨٢٧ ، وقد ظل العمودان ملقيين على الأرض بضعة أعوام حتى قام مهندس لمباردى اسمه نيكولو برفعهما وحفظهما ، انظر Hazlit : Venetian Repwblic , I , p. 483 .

(١٢٢) انظر ما سبق ص ٠٦١

(١٢٣) الإشارة هنا إلى المؤامرة الخائنة التى دبرها Marino Faliero الذى اختير دوجا عام ١٣٥٤ وهو فى السادسة والسبعين من عمره ، ويلاحظ أن طافور واسع الخيال فى هذه الناحية ، إذ أن الدوج أعدم يوم ١٧ إبريل ١٣٢٥ ، راجع :
Hazlit: op. cit. vol, III pp. 145 ff.

(١٢٤) ولد فرانشسكو باسونى Francesco Bussone فى قرية صغيرة اسمها كرمانيولا Carmagnola فى إقليم تورين عام ١٣٩٠ ، وقد ثبتت عليه جريمة القيام بأعمال خائنة مع الفيكونتى وأعدم يوم ٥ مايو ١٤٣٢ .

(١٢٥) تأسست بيتا فى سنة ١٣٤٦ لتلقّ اللقطاء ، انظر : Taissini op. cit. p. 559.

(١٢٦) استمرّت الحرب بين البندقية وميلان لمدة سنوات عدة ، ولم تتوقف إلا بموت فيليبو ماريا فيكونتى عام ١٤٤٧ ، وعلى أية حال فقد كان هو الخاسر ، إذ ثارت جنوة ، ومدت البندقية حدودها غرباً .

(١٢٧) نوع من القوارب الخفيفة ، محدودب الشكل أشبه بالسلحفاة .

(١٢٨) أصدر البابا يوجين قراراً بفض مجمع بازل واستدعى مجمعاً آخر فى « فرارا » فى يناير ١٤٣٨ ، ثم انتقل بعد عام واحد إلى فلورنسة ، وقد قبل الإمبراطور البيزنطى اتحاد الكنيستين اليونانية والرومانية لكن اليونان رفضوا هذا الأمر .

(١٢٩) هو نيكولو الثالث مركيز فرارا الثانى عشر (١٣٨٣ – ١٤٤١) وكان إذ ذاك فى الخامسة والخمسين من عمره ، ويبدو أن طافور شديد الاهتمام بمسألة السن ، أنظر ما سبق ص ٦٥ والفصل السادس والعشرين ص ٢٣٢ . وليس من اليسير معرفة الإشارة إلى الجلالون وإن كان Diego de Valera : Bronica de Espana Abreviada, Pt. IV, cap. 9 يشير إلى هذا الموضوع حيث كتب يقول « إن مؤرخى أسبانيا وفرنسا يشيرون إليها (أى إلى الهزيمة فى Roncesvalles) بأنها حدثت بسبب كونت فرنسى اسمه Galalon الذى لا يزال بعض ذريته يعيشون فى فرنسا ، وإذا حدث أن تناول أحدهم الطعام مع آخرين وضع الخبز مقلوباً أمامه على المائدة » . وجالالون (Galalon) هو الخائن فى أغنية رولاند .

(١٣٠) يبدو أن البينة المعاصرة لهذه المأساة قد فقدت ، ومن ثم لم يعد من اليسير التفرقة بين الحقيقة والخيال ، ولقد ماتت زوجة نيكولو الأولى عام ١٣٩٧م ، ثم عاد فتزوج مرة ثانية سنة ١٤١٨ م من Parisina Malatesta ، وقد أصبح Ugo إبن زوجها عشيقاً لها ، وقد أمسك الخاطئان ليلة ٢٠ مايو ١٤٢٥ وألقى بهما فى السجن وأعدما فى اليوم التالى ، وقد أصبح للمركيز كثير من الأبناء غير الشرعيين بعد موت « باريزينا » ، ثم كانت زوجته الثالثة Ricciarda de Saluzzio سنة ١٤٣١ ، وقد اشترط عليها أن يخلفه من بعده ابنه « ليونيللو Leonello » المولود عام ١٤٠٧ مما رزق منها من صبية ، وقد أعلن شرعيته منه البابا مارتن الخامس ، أنظر

Gardner : Dukes and Poets of Ferrara, 1904, PP. 37 ff.

(١٣١) ربما كانت الإشارة هنا يقصد بها أنها كانت ذات قدمين كبيرين .

(١٣٢) إلتقى طافور بنيكولا بتشينينو من قبل ، أنظر ص٣٣ ، حاشية قم ١١ .

(١٣٣) كان فيليبو ماريا فيكونتى بن جيان جالياز و G. Galeazzo وقد تولى العرش بعد موت أخيه عام ١٤١٢م وكان آخر حكام بيت فيكونتى الطغاة وظل يحكم مدة خمس وثلاثين سنة ، والمعروف عنه أنه كان ذا طلعة بالغة القبح وأنه كان شديد الإحساس بهذا العيب، ومن ثم فإن قلما كان يظهر للناس ، وأخذ نفسه بالعيش فى حجرات سرية ، وكان إذا خرج أبى أن يحييه الناس فى الشوارع .

(١٣٤) لم يكن لفيليبو ماريا ولى عهد يخلفه ، أما ابنته بيانكا Bianca فقد تزوجت ١٤٤١ من فرنشسكو سفورزا الذى اعتلى عرش الدوقية بعد فترة قصيرة من الحكم الجمهورى سنة ١٤٥٠ .

(١٣٥) هو قائد جماعة مرتزقة وقد تزوج بأرملة فيليبو ماريا فيكونتى .

(١٣٦) إذا كانت هذه هى لوسرن فقد اختلط الأمر على طافور .

(١٣٧) عبر آدم دى أوسك هذا الممر فى سنة ١٤٠٢ حيث « سحب فى عربة يجرها ثور ، وقد قد أنهكه التعب بصورة تجعله نصف ميت من جراء البرد وعينين معصوبتين ، حتى لا أرى أخطار الممر » راجع Chronicle, ed. by Sir E. M. Thompson, 2 nd., P. 242.

(١٣٨) هناك وصف لبازيل فى هذا الوقت وضعه ايناس سيلفياس Aeneas Sylvains الذى عرف فيما بعد باسم البابا بيوس الثانى ، وهو الوصف المترجم فى Chreighton : History of the Papacy, new ed. II, P. 199 . هذا وقد عقد المجلس عام ١٤٣١ واستمر منعقدا حتى سنة ١٤٤٩ .

(١٣٩) دون جوان دى سيلفا أول كونت لسفونيتا ألفريز الأكبر للملك جوان الثانى ، وقد كان ألفريز الأكبر هو الضابط الذى كان موكولا إليه حراسة علم المدينة بمناسبة إحدى الزيارات الملكية .

(١٤٠) من الأرجح أنها ماريا شتين التى كانت سابقاً أحد الأديرة البندكتانية وللحق بها كنيسة حج شهيرة .

(١٤١) أنظر ما سبق ص ١٥٦ .

(١٤٢) شيدت القلعة القديمة عام ١٣٧٦ فى رينز Rhense قرب كوبلنز ، وقد حل محلها بناء حديث وجرى فيها آخر انتخاب إمبراطورى عام ١٤٠٠ م .

(١٤٣) ربما كان يعنى بذلك جوهانسبرج لكنها تبعد عن كوبلنز عدة أميال كثيرة .

(١٤٤) تم انتخاب ديتريش الثانى فون مورز عام ١٤١٤ ومات سنة ١٤٦٤ وهو واحد من أقوى أمراء الكنيسة ، وعلى الرغم من إشارة طافور هذه إلا أن فون مورز اتخذ خطوات عنيفة فى العمل على إصلاح سير رجال الدين .

(١٤٥) هو أدولف الثانى أول دوق لكلوفس ١٣٧١ — ١٤٤٨ ، وكانت زوجته الثانية « ماريا » أخت فيليب الطيب .

(١٤٦) وكل إلى أرنولد ديجمونت عام ١٤٢٣ بدوقية جيلدرز Guelders وتستفين Zutphen .

(١٤٧) لا يمكن أن يكون المقصود بها Lille ، ولابد من أن طافور يشير إلى مكان صغير مجاور لبوا — لى — ديك Bois-le-duc وخلط بين الاسمين .

(١٤٨) بقي فيليب الطيب الذى امتد حكمه من ١٤١٩ حتى ١٤٦٧ م ، وكان قد تزوج عام ١٤٣٠ بإيزابلا ابنة خوان الأول ملك البرتغال وفيليب دى لانكاستر .

(١٤٩) جون دى لانكاستر هو الابن غير الشرعي لفالرام الثالث Waleram دوق لوكسمبرج ، وقد ولد سنة ١٣٩٠ م واعترف ببنوته الشرعية سنة ١٤٣٦ ومات عام ١٤٦٦ م ، وكان يعد واحداً من أعظم جند يومه ، وقد أسر مرتين فى بعض المعارك ، وأنعم عليه بوسام طائفة القطيع الذهبي عام ١٤٣٣ م ولكن ليس بالطريقة التى يرويها طافور فى الرحلة ، إذ يبدو أنه يخلط بين جان دى لاتريموى Trimowlle وسير دى مونتيج الذى اتهم بالجبن وأخرج من الطائفة عام ١٤٣١ م .

(١٥٠) هو الذى أصبح فيما بعد يعرف باسم « شارل الأصلع » المولود سنة ١٤٣٣ والمتوفى عام ١٤٧٧ ، وكان قد تزوج فى سنة ١٤٦٨ بمرجريت دى يورك أخت إدوارد الرابع .

(١٥١) فيما يتعلق ببروجس راجع Malcolm Letts: Bruges and Sluys (London. 1926) ولقد كانت هـــذه المدينة وقت زيارة طافور لا تزال تعتبر سوقاً من أكبر الأسواق التجارية فى أوربة ، أنظر أيضا Pirenne : Economic & Social History of Medieval Europe, chs. 5&6.

(١٥٢) cf. M. Letts : op cit.

(١٥٣) وكان موقعها عند الجانب الشرقى من القصر الكبير ، ولكنها تهدمت سنة ١٧٨٧ م .

(١٥٤) يشير طافور إلى ثورة ١٤٣٧ حيث هاجم الثوار الدوق عند بوابة « بوفرى » وكادوا أن يقتلوه وكانت نجاته إحدى المعجزات ، ومن ثم كانت نقمته عليها شديدة فعاود قتالها فى العام التالى واحتلها .

(١٥٥) كانت سلويز هى ميناء بروجس البحرى فى ذلك الحين ولكنها أضحت اليوم مدينة فى الداخل .

(١٥٦) ثارت « غنت » سنة ١٤٥٢ ، ويرجع الفضل فى مقاومتها للحصار المضروب عليها إلى استحكاماتها العظيمة ، غير أن هزيمة « جافيرا » يوم ٢٣ يوليو ١٤٥٣ أدّت إلى خضوع الثوار ، وفى يوم ٣٠ يوليو ركع ألفان من أهلها للدوق فيليب ملتمسين عفوه ، وفرض عليها أقسى الشروط المذلة .

(١٥٧) قام الإمبراطور سجسمند عام ١٤١٥ بمنح « انتورب » حق عقد سوقين فى كل عام ، ومنذ ذلك الحين أخذت المدينة فى الازدهار والرخاء بصورة لم تشاهدها من قبل ، لكنها لم تستطع أن تكون مركز تجارة الشمال إلا منذ بداية القرن السادس عشر إذ كانت « برجس » لاتزال منافساً خطيراً لها ، أنظر فى ذلك

Pirenne : Hist. de Belgique, II P. 440 ; J. Wegg : Antwerp 1477—1559. (1916).

(١٥٨) أنظر ما سبق ص ١٠٩ — ١١٠ .

(١٥٩) لابد من أن يكون الدوق الذى يقصـــده طافور فى المتن هو Ingoldstadt ابن فردريك دوق بافاريا المسمى لاندشوت .

(١٦٠) انعقد مجمع كونستانس عام ١٤١٤ وهو الذى قرر حرق « جون هس » انظر فى ذلك J. H. Wylie The Council of Constance to the Death of John Huss, (Lond.; 1900).

(١٦١) هو غير John de Turquemada المحقق فى ديوان التفتيش ، ولكنه من رجال الدين وقد مات سنة ١٤٦٨ ، كما أنه أحد رسل البابا الذين أوفدهم لحضور المجمع المنعقد فى بازل .

(١٦٢) ينتمى كاسبر شليك Kaspar Schlick إلى إحدى الأسرات الشريفة فى فرانكونيا ، وكان قد التحق بخدمة الإمبراطور سجسمند كاتباً فى ديوان مراسلاته ، ثم ما لبث أن أصبح صديق الإمبراطور وموضع ثقته بصورة جعلته يغدق عليه الأموال ومظاهر الشرف ، وقد ظل يشغل منصب المستشارية زمن « ألبرت » الثانى وفردريك الثالث .

(١٦٣) من هنا حتى عدة صفحات تالية يمكن مراجعة رحلات « يوحنا بوتسباخ J. Butzbach انظر فى ذلك M. Letts (in) English Historical Rev. January, 1917.

(١٦٤) Cf. Eng. Hist. Rev. Jan. 1917), p. 29.

(١٦٥) هو فردريك الثانى حليف الإمبراطور سجسمند

(١٦٦) كان ألبرت دى استريا زوج ابنة الإمبراطور سجسموند ، وقد أصبح ملك الرومان عام ١٤٣٧ ، ومات وهو فى محاربته الترك سنة ١٤٣٩ .

(١٦٧) فى سنه ١٤٢٠ غزا البنادقة جميع نواحى « فريولى » ومدوا حدودهم ناحية الشمال الغربى إلى الجبال .

(١٦٨) لم يكن هناك بطبيعة الحال زواج بملك بولندة الذي كان إذ ذاك صبياً صغيراً ، لكن حينما كان سجسموند فى مرضه الأخير أخذت الإمبراطورة فى التآمر ضده فرتبت زواجها من ملك بولندة بعد موت الإمبراطور ، كما رتبت

حصولها على تيجان بوهيميا وبولندة والمجر ، وكانت الإمبراطورة إذ ذاك فى الخامسة والأربعين من عمرها ، غير أن المؤامرة انكشفت وألقيت الإمبراطورة فى السجن الذى ظلت حبيسة فيه حتى ردت إليها حريتها ولكنها ما لبثت أن ماتت سنة ١٤٥٧م، انظر فى ذلك : J. Aschbach : Geschichte Keiser Sigismunds, Hamburg. 1845. Vol. IV.pp. 391. 395.

(١٦٩) كان فلادسلاوس الثالث Wladislaus (١٤٣٤ — ١٤٤٤) لا يزال طفلا فى التاسعة من عمره حينما أصبح ملكا ثم وافاه الموت وهو فى العشرين فى معركة « فارنا » حيث كان يحارب الترك .

(١٧٠) يوجد منظر رائع لفينا عام ١٤٨٩ وارد فى J. Schwerdfeger Vienna Gloriosa, Vienna, 1923. p. 26.

(١٧١) كانت الإمبراطورة إليزابث سيدة ذات شجاعة كبيرة وتصميم قوى ، وقد مات زوجها عنها قبل ولادة ابنها حيث دبرت سرقة تاج المجر المقدس ووضعه على رأس الطفل الرضيع ، وتوجد مذكرات وصيفتها هيلين كوتانر — التى اختلست التاج — فى المكتبة الإمبراطورية بفينا (تحت رقم ٢٩٢٠) ، وقد طبعها س. اندليخر S. Endlicher عام ١٨٤٦ وكانت موضع أحد بحوث Gustav Freytag: Bilder aus der deutschen Vergangenheit (von Mittelalter Zu Neuzeit. ch. x).

ويوجد وصف رائع للطفل من حيث « إنه كان فى تتويجه قليل من البهجة ، وكان يبكى بصوت عال » .

(١٧٢) هو فردريك الثالث (١٤٤٠ — ١٤٩٣) الذى يعتبر أضعف من خلفوا أوتو العظيم ، أما فيما يتعلق بخلقه فراجع Stubbs : Lectures on Medieval and Moderm History, p. 387 هذا وقد تزوج ابنه مكسميليان من مارى البرجندية.

(١٧٣) أنظر ماسبق ص ٢٣٠ .

(١٧٤) شيد بيترو كوزو الصالة القائمة فى قصر البلدية بين عامى ١١٧٢ ، ١٢١٩ ،

وقد زينت الجدران بثلاثمائة لوحة فنية من إبداع جيوفانى ميرتيو وآخرين بحدسنة ١٤٢٠ .

(١٧٥) هو بطرس أبانو (١٢٥٠ — ١٣١٦) الفليسوف والعالم الطبيعى الإيطالى ، وقد مات ميتة طبيعية وإن كان قد حوكم أمام محاكم التفتيش مرتين بتهمة ممارسته السحر ، وكانت وفاته قبل الفراغ من محاكمته الثانية ومن ثم صنعوا دمية تمثله وأحرقوها .

(١٧٦) فى يناير ١٤٣٩ قرر البابا نقل «المجمع» إلى فلورنسة ، وبدأ رحلته فى اليوم السادس عشر من يناير وبذلك يمكن تحديد تاريخ وصول طافور إلى فرارا ، انظر Creighton : History of the Papacy, new ed. II. p.p 340 ff. وإنه لأمر محير كيف رأى طافور كل ما يصفه ثم وصل بعد ذلك إلى فرارا بعد خمسة وعشرين يوماً من وصوله إلى بريسلاو ، ذلك أن الرحلة تستغرق اثنى عشر يوما (انظر ص ٢٣٦ س٢١ من هذه الترجمة العربية) .

(١٧٧) ورد وصف هـذا الحفل الفريد فى Hazlitt : Venetian Rerublic, vol. IV, pp. 141 ff. فقد حمل أسطول مؤلف من خمس وعشرين سفينة وستة أغربة عبر جبال الألب فى التيرول وذلك فى عربات يجرها الرجال والثيران حتى داخل Lago di San Andrea ومن هناك عبر جبل « بالدو » إلى « لاجودى جاروا » وكانت المسافة التى قطعت تبلغ مائتى ميل ، وقدرت التكاليف بخمسة عشر ألف دوكات أو أكثر ، وقد أنزل الأسطول بأجمعه فى فبراير ١٤٣٩ ؛ ومن البين أن طافور شاهد نقل واحد من السفن الأخيرة .

(١٧٨) فيما يتعلق بيتشينو راجع ما سبق ص ١٣ .

(١٧٩) ليس من السهل تفهم ما يريده طافور هنا ، ذلك أن البيازنة شاركوا فى الحرب الصليبية الأولى وبرهنوا على حماستهم لها وشجاعتهم فى الاستيلاء على بيت المقدس وقد أدى ذلك إلى حصولهم على كثير من الامتيازات التجارية ، وربما

كانت الاشارة فى المتن راجعة إلى واحد من تلك الاضطرابات التى حاقت بالمدينة المنكودة الطالع فى القرن الثالث عشر ، وقد بيعت بيزا إلى فلورنسة فى سنة ١٤٠٥ .

(١٨٠) انظر ماسبق ص ١٠

(١٨١) يشير طافور إلى ظاهرة فذة على بعد ميل ونصف ميل من « بيترا مالا » عند سفح جبل « دى فو » المعروف باسم « إى فوكى Fouchi I » وهو تحتوى على خروج غازات غير حارقة أشبه ما تكون بمظهر بركانى ، وهذه النيران تكون على بعد قدم من سطح الأرض ، وأحسن ما تظهر بوضوح فى الليل .

(١٨٢) هو أحد الأديرة البازيليه ، أسسه روجر الأول ثم نقل من هناك حينما أعاد شارل الخامس بناء قلعة « سان سلفاتور » .

(١٨٣) لا تزال الصور والرسوم تمثل روعة الكنيسة وتجعلها من أجمل كنائس العصور الوسطى .

(١٨٤) لا تزال « ترابانى » تعد المركز الرئيسى لتجارة المرجان الصقلى .

كشاف أبجدى

بالأعلام والأماكن الواردة فى هذه الترجمة العربية (*)

(*) قام بعمل هـذا الكشاف زميلى الدكتور اسحاق تاوضروس عبيد المدرس بكلية الآداب بجامعة عين شمس ، فله منى خالص الشكر .

أبسالوم : ٤٨
أبوليا : ٣٦ ، ٢٥١
إتنا : ٢٥٤
أتيوبيا : ٩٠
أجاثا (القديسة) : ٢٠
أجاممنون : ٣٨
أجير : ٢٢٦
أخايا : ٣٦ ، ١٢١
أخيل : ١٠٣ ، ١١٤
أرجل : ١٠٢ ، ١١٤ ، ١٥٥
أرمينيا : ٥٤ ، ١٠٤ ، ١٣٤
آدم (قبر) : ٥١
أدريانوبل : ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٦
آراس : ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٨
أربينودا مالاتيستا : ٣١ ، ٣٢ ، ٢٤٥ ، ٢٥١
أرجنتينا : ١٩٧
أرسولا (القديسة) : ٢٠٣
أرغونة : ٧ ، ١١ ، ١٢ ، ١٧ ، ٣٩ ، ١٠٢ ، ٢٣٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥
أرليس : ٢٢٥
أريما : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠
أزوف : ١١ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٦
اسبارتيل : ٤
اسبانيا : ٣١ ، ٧٩ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٧٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٣
الإسبتارية : ٣٩ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩
استامب : ٢٠٧
استبان دوريا : ٤
استيفان الان : ١١٩
اسرائيل : ٨١
اسكلاڤونيا (دلماشيا) : ٣٥ ، ٣٦ ، ١٥٩
اسكاما : ١١٦ ، ١٢٣
اسكندرية : ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٩٠ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ٢١٣
اسطفان (القديس) : ٤٦
آسيسى : ٣٠ ، ٣١ .
اشبيلية : ٤ ، ١١ ، ١٦ ، ٥٧ ، ٦٤ ، ٧١ ، ٩٠ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١٧٢ ، ٢٣٤ ، ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٥٣
أصيلة : ٤
افتين : ٢٠ ، ١٨٠
اكتافيوس : ٢٥
اكويليا : ٢٤١
ألب : ١٣ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤١
ألبا : ١٢٠
الباف : ٤١ ، ٥٩ ، ١٠٠
البانيا : ٣٥ ، ٣٦ ، ١٥٩
البرت (إمبراطور) : ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠
الفونسو فرناندى ميا : ٢ ، ١١٩ ، ١٣٧
الفون دى ماتا : ١١٥
الفيرز : ١٩٣

المانيا : ١٠٢ ، ١٥٢ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢٢٦

المنيان (سور) : ٥

اليرا : ٧

أنا (القديسة) : ٤٨

انتورب : ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩

أنتينمور : ٢٤٣

انجلترا : ٢١١

أندلس : ١٣٧

انطاكية : ٥٤

انطوان دى فلوڤيان : ٣٩ ، ١٠٥

انطونيوس دى بادوا (القديس) : ٤٩ ، ٢٤٢

أنكونا : ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٥١

إينس : ٥٥ ، ٥٦ ، ١٠١ ، ١٠٣

أوروس (جزيرة) : ١٥٨

أوغسطوس : ٢٥

أوفرن : ١٠٧

أولم (أولوس) : ٢٢٥

إيثيشيا : ٧

إيطاليا : ٧٨ ، ٨٨ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٩٢ ، ٢٤١ .

إيڤونا (ميناء) : ١٠٩

إيليا (النبي) : ٤٧

إيليام : ١١٢

بابليون : ٦١ ، ٧٣ ، ٧٤

باتراس (خليج) : ١٥٩

باتروكولوس : ١١٤

باتيندورف : ٢٢٥ ، ٢٣٠

باتى : ٢٥٢

باڤينيا : ٥١

بارما : ١٨٧ ، ١٨٨

بارنزو : ٣٥ ، ١٦٢

باريس : ٣٨ ، ٢٠٨ ، ٢١٦

بازيل : ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢

باسك : ٢

باسيل (القديس) : ١٤٦ ، ١٥٧

باسينو اليتاتو : ١١

بادوا : ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤

باكوه (بحر) : ١٣٥

بالرمو : ٢٥٣ ، ٢٥٤

البحر الأسود : ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٤٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ٢١٣ ، ٢٢٥

البحر الميت : ٤٩

بدرازا : ٢٦

بدرو (دوق) : ١٠٢

بدرو (كونت) : ١١٩

برابانت : ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩

براج : ٢٢٧

براسادا : ٢٧

براميدا (ميناء) : ٤

براندبرج : ٢٣٠

بربروسا : ١٦٣ ، ١٦٦
البرتغال : ١٠٢ ، ١١٠
برتوفينيرى : ١٢
برجنديا : ١٨٥ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٣٠
برسلاف : ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦
البسفور : ١٤٧ ، ١٥٥
برشلونة : ٧
برشيا : ٢٤٦
بركيو (قائد) : ٣٠
برنديزى : ٢٥١
بروتوس : ٢٦
بروجس : ١٨١ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨
بروسة : ١٥٤
بروسيا : ٢٣١
بروفانس : ٧ ، ١١١
بروكسل : ٢٠٥ ، ٢٠٩
بريسترجون : ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠
بستويا : ١٣ ، ٢٤٩
بشكنس : ١١٠
بطرس أبانو (الساحر) : ٢٤٢
بطرس الصفد (كنيسة) : ٢٧
بطرس (القديس) : ٢١ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٤٨ ، ١٨٩
بطرس (كنيسة القديس) : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١
بطرس الرندى : ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦
بلاطس : ٤٦
بلانكو : ٢٥٤
بلجرينز : ٢٥٣
بلد الوليد : ١٨٥
بلدوين (قبر) : ٤٦
بنتيكاترو (دير المسيح ضابط الكل) : ١٤٦
البندقية : ١٦ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٩٣ ، ٩٩ ، ١١١ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٧ ، ٢١١ ، ٢١٧ ، ٢٣٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١
برنارد (دير القديس) : ٢٦
بو (نهر) : ١٥ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٧

بواتيللو : ١٨٣
بوا — لى — ديك : ٢٠٤ ، ٢١٩
بودا : ٢٣٩
بورتو فينيرى : ١٣
بولاك : ١١٠
بولص (دير القديس) : ٢٧
بولص (جسد القديس) : ٢١
بولص (رأس القديس) ، ٢٣
بولندة : ٨٨ ، ١٣٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨
بولونيا : ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨٨ ، ٢٥٠
بوهيميا : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٦
بياتشنزا : ١٨٨
بيت المقدس : ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٦٥ ، ٩٠ ، ١٠٠ ، ١٤٤ ، ١٥٢ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ٢٠٦ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٤٠ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩
بيت لحم : ٤٧ ، ٤٨
بيترا سانتا : ١٢
بيرجوس : ١٢٨ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٣
بيرو بارفادى كامبوس : ١٦٢ ، ١٦٣
بيروت : ٤٢ ، ٥٣ ، ٧٨
بيروجا : ٣٠
بيزيه : ١٠ ، ١١٥ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٥٤
بيزا : ١٢ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩
بيزارو : ٢٥١
بيكاردى : ٢١٥
تابور (قلعة) : ٢٢٧
تانا (بحر) : ١٣٥
تانيه (نهر) : ١٣٦
التار : ١٢٥ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٥٢
تراجان (امبراطور) : ٢٦
تريان (بوابة) : ٢٣
تركيا : ١٠٣ ، ١١٢ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٥٤
تريفيو : ٢٤١
تريمويل : ٢٠٦
تنيدوس (جزيرة) : ١١٢ ، ١١٣ ، ١٥٦
توردو دل كامبو : ١٧٢
تورنو (برج) : ٢
توزول : ٢٣٣
توما (القديس) : ٤٤ ، ٩٠ ، ٩١
تونس : ٢٥٤ ، ٢٥٥
التيبر : ١٧ ، ١٩

ثيتان (جزيرة) : ٧
تيتس ليفيس (المؤرخ) : ٢٤٢
تيرادى لا فورد : ٢٥١
تيرنى : ٣٠
تيمور لنك : ٧٩ ، ١٣٧
ثابور (جبل) : ٥١
ثرناديلا : ٥٦
جاك دى لاين : ٢١٧
جالالون : ١٨٥
جاليبولى : ١١٤
جانوس ١٠ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٠٣
جايوس ماريوس : ٢٩
جبر الفار : ٦
الجبل الأسود : ٥٤
جبل طارق : ٣ ، ٤
الجراكسة : ١٣٤
جراندىلادى ألكوديا : ١٨٧
جرجنق : ٢٥٤
جريجورى (بابا) : ١٨ ، ١٩ ، ٢٧
جوان (ملك) : ١٤ ، ٢٠٥ ، ٢٣٣ ، ٢٥٤
جوان الإيلى : ١١٦
جوان دى تورکيمادا : ٢٢٥
جوان دى سيموفيا : ٢٢٥
جوان دى موريللو : ٢١٨
جوان كارو : ١١٥ ، ١٣٠
جورج (القديس) : ١٧٢ ، ١٧٦
جورج (ديرسلت) : ٤٢
جورج فونيروك : ٢٣٨
الجلجلة (جبل) : ٤٥
جليتو : ٢٢
الجليل : ٥٣
جنوة : ٤ ، ٥ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ٥٤ ، ١٠٩ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ٢٣٠ ، ٢٤٩
جنيف : ٢١٨
چوبيو : ٣١
جوتيير كيسارا : ١٦٢ ، ١٦٣
جوتيير كويكسادا : ٢٠٦
جودفرى دى بويون : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦
جون كليفيز : ٢٠٧
جيان : ٢٢٦
جيبو : ٣٢
جيبو شابات : ٤٦
جيروم (القديس) : ٢٧ ، ٤٧ ، ١٦٠
جيلدرز : ٢٠٤ ، ٢١٩
جيمس الصغير : ٤٨
جيمس الكبير : ٤٨

حايم : ٦٥
حواء (قبر) : ٥١
خوان دى أنجلو : ١٦٣
خوان (الملك): ٥٥
خيرو نيمو دوريا : ٤
خيرو نيمو دى فولتاخو : ٤
خيوس (جزيرة) : ١٠ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ٢٢٠
الدانوب : ٢٢٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩
داود (الملك) : ٤٨
داود (قلعة الملك) : ٤٣
دراجس : ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٤١
الدردنيل (مضيق) : ١١٣ ، ١١٤ ، ١٥٥
دلماشيا : ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٢
دمشق : ٤٢ ، ٥٣ ، ٨١
دمياط : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٠
دواداره : ٦٨
دومينجوفنت : ١٨١
دومنيكان : ٢١٨
دوميسكو (دير) : ١٤
الدون (نهر) : ١٣٦ ، ١٣٧
دون استيفان إلان : ١٢٠
دون بريلان : ١٢٠
دون بيرو روزكافور : ١٢٠
دون جوان : ١١٥ ، ٢٢٩
دون خوان : ٢
دون ستيفن : ٢٢١ ، ٢٣٣
دون سانت بول : ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨
دون فادريك : ٢٣٣
دون فرنانت : ١٢٠
دون فرناندورى جيفارا : ٢٣٨
دون لويس دى قزمان : ١٤ ، ١٦
ديجو ثينوديو : ٥٩
دى كونتى : ٩٣
دى لوس دوتسيوس : ٢٢٤
ديمترى (القديس) : ١٤٧
راجوزة : ٣٥ ، ١٥٩
رأس يفانى : ١٠٣
رافنا : ٣٣ ، ٢٥١
رامة : ٤٢
الراين : ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٢٢
رانيلاند : ٢٣٣
رشيد : ٩٩
الرملة : ٥٣
روان : ٢١٦
رودس : ٣٩ ، ٤٠ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ،

١١٠ ، ١١١ ، ١٣٠ ، ١٧٥ .
روزة (ضحان القديسة) : ٣٠
الروس : ١٣٤
روسيا : ١٣٦ ، ١٥٢
رومانيا : ١٥٦
روما : ١٧ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦ ،
٥٦ ، ١٤٨ ، ١٦٦ ، ١٦٨
رومولوس (قبر) : ٢٧
ريجو : ٢٥٢
ريموس (قبر) : ٢٧
ريمينى : ٣٢ ، ٣٣ ، ٢٥١
زارا : ٣٥
زكريا (القديس) : ٤٧
سابينزا (جزيرة) : ٣٧
سانتاليا (خليج) : ١٠٣
سالوبرينا : ٧
سالونيكا : ١٥٦ ، ١٥٧
سافونا : ٨
سافوى : ١٠٢
سالوست : ٢٩
ساموس (جزيرة) : ١٠٩
سامو تراس : ١٣١
سان بدرو : ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٢٤
سان سستو (كردينال) : ٢٢٥
سان كروزو (كردينال) : ٢٢٥
سان لورنزو : ١٠
سانت مارتا (كنيسة) : ٩٢ ، ٩٦
سانتا ماريا (راس) : ١١٣ ، ١٥٦
سانتاماريا أراكولى (كنيسة) : ٢٦
سانتا ماريا ماجورى (كنيسة) : ٢٧
سانتا ماريا نوفا (دير) : ٢٦
سان لوكار : ١ ، ٣ ، ٤
سبارتيفنتو (رأس) : ٣٥ ، ٢٥١
سبالاتو : ١٦٠ ، ١٦٢
سبتة : ٤ ، ٥ ، ٦
سبوليتو : ٣٠
سبيزيا : ١٢
ستاليا : ٤١
ستانفان (دير) : ٣٧
سترا سبورج : ١٩٧ ، ٢٢٢ ، ٢٣٧
سترمبولى : ٢٥٣
سترى ليفانت : ١٢
ستيفن : ٢٢٠
سجسموند : ٢٤ ، ١٦٣ ، ٢٢٦ ،
٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨
سدوم وعمورة : ٤٣ ، ٤٩
سردينيا : ٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥
سرقوسة : ٢٥٤
سرينا : ١٠٣
سفورزا : ٣٠

سكسونيا : ٢٢٧
سلامنكا : ٥٩
سلفستر (بابا) : ٢٣
سلفستر موروديني : ١٦
سلمبريا : ١١٤
سلوبز : ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥
سلويس : ٢٠٩ ، ٢١٠
سليمان (معبد) : ٤٦ ، ٥١
سنت أنجلو (حصن القديس) : ١٩ ، ٢٠
سنت باسيل : ٣٧
سنت بدرو (قلعة) : ١٠٩
سنت جوثار (ممر) : ١٩١ ، ١٩٢
سنت كاترين (القديسة) : ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٢ (الدير) : ٥٢ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٩٩
سنت كروس : ٢٦
سنت لازار : ١٩٧
سنتوريا : ٤٤
سنتياجو : ١٩٩ ، ٢٠٩
سوريا : ١٥٥
سوفينت : ١٠٩
سيتيرا (جزيرة) : ٣٨
سيچوفنا : ٥٦
سيزيا : ١٣
سيلمبريا : ١٥٥
سيلات : ٨٤
سليزيا : ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤
سيناء : ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢
السينيت (مجلس) : ٢٩
شافهوزن : ١٩٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤
الشام : ١٦٤ ، ١٧٤
شاين : ٢٠٧
شرلمان : ١٥٢ ، ٢٢٦
ششونة (يهود) : ٨١
شيوجيا : ١٨١
صايم : ٦٥
صقلية : ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١
صنوب : ١٣٠
صوفيا (القديسة) : ١١٤ ، ١٤٢ ، ١٤٦
صهيون (جبل) : ٤٢ ، ٤٣
صور : ٥٣
طرابيزون : ١١٥ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦
الطرف الأغر : ١
طروادة : ١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٣٩ ، ١٥٦ ، ١٩٤ ، ٢٤٣
طريق الآلام : ٤٦
طليطلة : ١١٩ ، ١٢٠ ، ٢٢٦
طنجة : ٤

عاموص (قلعة) ٤٣
عسقلان : ٥٣
عكا : ٥٣
العنصرة (عيد) : ٤٣
عيسى الناصرى : ٢٦
غاليبولى : ١٥٥
غاليسيا : ١ ، ١٢٩
غنت : ٢١٦ ، ٢١٧
غرناطة : ٦ ، ٧
غيليا : ٨٥
فارس : ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٥٤
فاروس : ١٠
فالا يرنا (كنيسة) : ١٤٦
فالونا : ٣٥ ، ١٥٩
فاتو : ٢٥١
فرانشيسكو (كونت) ١٢ ، ٣١ ، ١٦٠ ، ١٨٩
فرانشيينو كانى : ١٩١
فرارا : ١٥ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٠
فرانكفورت : ٢١٨ ، ٢١٩
فرانكلينو : ١٥ ، ١٨٢
فردريك (الإمبراطور) : ٢٢٧
فردريك الدوق : ٢٤٠
فرد نند كونت فيلا ندرلندو : ١٩٩
فرسان القديس يوحنا (انظر : الاسبتارية)
فرعون : ٨١
فرناندو (ملك أراجون) : ٢٢٤
فرناندو دى أنجلو : ١٦٣
فرنسا : ٨٨ ، ١٦١ ، ١٨٥ ، ٢١٦ ، ٢٤٨
فرنسيس (القديس) : ٣٠ ، ٣١ ، ١٣٣ ، ٢١٨
الفرنسكان : ٤٤ ، ٤٦
فرنند تيرزى أيلا : ٢٢٤
فريولى : ٢٤١
فشنزا : ٢٤٦
فلاندرز : ١٨١ ، ٢١١ ، ٢١٦
فلورنسا : ١٣ ، ١٧ ، ٢١٧ ، ٢٣٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨
فوجا فيكا : ١١٢
فيتربو : ٣٠ ، ١١٤
فيتولدو : ١٣٦
فير تزولا : ٢٤٩
فيثرونا (فيروما) : ٢٤٦
فيرونيكا : ٢١ ، ٢٣
فيزو : ١١٠ ، ٢٢٠
فيلا ديال : ٦٦
فينا : ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨
قادس : ٤ ، ٥ ، ٦
القاهرة : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ،

٧٧ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٧ ،
٩٩ ، ١٣٤
القبر المقدس : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٢ ،
٧٩ ، ٢٣٠
قبرص : ١٠ ، ٤١ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٤ ،
٦٨ ، ٧٠ ، ٧٨ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ،
١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٧٤
قدس الأقداس (مذبح) : ٢٣
قرطاجنة : ٧
قرطبة : ١٢٠ ، ١٣٤ ، ٢٣٧
قزوين : ١٣٦
قسطنطين (إمبراطور) : ٢٣ ، ١٤٤ ،
١٤٥ ، ١٤٩
القسطنطينية : ١٠ ، ٣٦ ، ١٠٩ ،
١١١ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨ ،
١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ،
١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،
١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٤١ ،
١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ،
١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،
١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٨٣ ، ٢٢٠ ،
٢٢٦ ، ٢٤٣
قشتالة : ٣ ، ٥ ، ١٤ ، ٢٦ ، ٣١ ،
٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٩٣ ،
٩٦ ، ١٠٢ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ١١٩ ،
١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٣٧ ، ١٥٢ ،
١٦١ ، ١٧٠ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ ،
٢٠٨ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٥ ،
٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٦
قشتيل الروج (جزيرة) : ٤١ ، ١٠٤
قصر النيه (ديدالس) : ٣٨
قطالونيا : ٧ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤
قطالونيون : ٤
قلهورية : ٢٥١ ، ٢٥٢
القوقاز : ١٣٤
قيصر : ٢٣
كارلا مرروزيني : ١٦
كارلومور سنيو : ٣٣
كارمينا (كونت) : ١٧٧ ، ١٧٨
كارنيرو (جبل) : ١
كازاساجس : ١٠٩
كازال جيتوفيز (خصى) : ٢
كاسبرشليك : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨
كاسيوس : ٢٦
كافا ١٠ ، ٤٦ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،
١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٥٥
كامبل : ٢٢٦
كامبو سانتو : ٢٤٩
كامبو دوليو : ٢٢
كامبو دى فيارى : ٢٢
كاناى : ٢٤٩
كانديا (كرتيا) : ٣٨ ، ٧٧
كانديلور (لورد) : ٤١ ، ٦٠
الكتلان : ٧

كرارا : ٢٤٢
كراكاو : ٢٣٢
كريت: ٣٨، ١٥٨
كريستوفر (قديس) : ١٦٠ ، ١٧٥
كريكى : ٢٠٧
كلاترافا : ١٤
كلير (القديس) : ٣٠
كليفس: ٢٠٣ ، ٢١٩
كناى (جزيرة):١٥٨
كوبلنز : ١٩٩
كوردن لنجن : ١١٥
كورسيكا : ٢٤٨
كورفو : ٣٦
كوركان : ١٣٥ ، ١٣٨
كورنثة : ٦٣
كورنو : ١٥٩
كورو: ٣٧
كورونا (كنيسة سيدتنا) :٩
كوس (جزيرة) :١٠٩
كوستانزا : ٥٤
كولا كيم : ٣٩
كولخيس (قلعة) : ٥٤
كولمبريا (برج): ٢٥٤
كولوثيا : ١٩٦ ، ٢١٠
الكولوسيوم : ٢٥
كولونيا : ٣١،١٩٨،١٩٩،٢٠١،٢٠٣
كونستانس: ٢١٤
كونيكا : ١٩٣
كيفا : ١٣٠
كيوس : ١٣٠
لاديسلاوس (ملك نابلى) : ٣٦
لافورد : ٣٦
لاهالة : ٢١٢
لبلة (كونت) : ١ ، ٢ ، ٣
لبنان : ٥٣
لجهورن : ١٢ ، ١٣
لجهورية (ميناء) : ٢٤٩
لدفيجو : ٢٢٠
لدويج : ٢٢٠ ، ٢٢٢
لرينثى : ١٢
لعازر : ٤٨ ، ٥٠
لكسة : ٧
لمباردیا : ١٤ ، ١٨٩
لونهايم : ٢٢٠
لوردوبا شار (سوق) : ١٣٨
لورنس (القديس) : ١٤٤
لوسرسا : ١٩١
لوفان : ٢١٩
لوقا (القديس) : ٢٣ ، ١٤٥ ، ٢٤٢
ليارى (جزيرة) : ٢٥٣
ليرتش : ١٣
ليتوانيا :١٣٦
ليفانتين (حصن) : ٢٢٠
ليلا (ميلليناس) : ٢٠٤ ، ٢٠٥
ليون : ٧
ما دالون : ٤٨
مارتا : ٤٨
مارتن (بابا) : ٣١
مارجرجس : ٥٣ ، ٥٥

مارکوس (تمثال) : ٢٤
ماری (العذراء) : ٤٥ ، ٤٦
ماری (بیت العذراء) : ٤٤
ماریا ستیلا (دیر) : ١٩٤
ماریا الکبری (کنیسة القدیسة) :
٢٤ ، ٢٦ ، ١٤٥
مارینا (القدیسة) : ١٢١ ، ١٧٥
الماغوصة : ١٠ ، ٥٤
مالطة : ١٥٦
مالقة : ٥ ، ٦
مالینز : ٢٠٥
ملاتسیا : ٣١
ملطیة : ١٣٢
المنکب : ٧
منورقة : ٧
مودون : ٣٦ ، ٣٧ ، ١٥٩
مودیکا : ١٣
مورافیا : ٢٣٦
المورة : ١٢١ ، ١٥٩
موزن فیلا فرانکا : ٢٤٣
موزین سوارز : ٦٨
موسی : ٧٧
موسین سواریس : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧
مونت بلیجرینو : ٢٥٤
مونت ترابانی (جبل) : ٢٥٤
مونت سانتو (جزیرة) : ١٥٦
مونتفرات : ١٧٤
مانتوا : ١٧٤
مونریالی (کنیسة) : ٢٥٣
مایونیز : ١١٢
المجر : ١٥٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٨ ،
٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١
محمد (صلی الله علیه وسلم) : ٩٠
مدالون : ٥٠
مدینا : ٢١٨
مرقص (کنیسة القدیس) : ١٦ ، ١٢١ ،
١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٨
مرمرة : ١١٤ ، ١٥٥
مریم المجدلیة : ٤٨
مسینا (مضیق) : ٢٥١ ، ٢٥٢
مصالة بن مصالة : ٤
مصر : ٥٦ ، ١٣٤ ، ١٥٥ ، ١٧٣ ، ١٨٣
المطریة : ٧٠
مکة : ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٠
میتلینی : (جزیرة) ١١٣
میدا : ٥٤
میسینی : ٢٢٧ ، ٢٤٠
میلان : ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٣٠ ،
٢٤٥ ، ٢٤٦
میلانو : ١١ ، ٣٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،
١٨٨ ، ٢٠٧
مینز : ١٩٨ ، ٢٢٠
میورقة : ٧
نابلی : ١٢ ، ١٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤
نارنی : ٣٠
ناصر الدین : ٥٣

الناصرة : ٥٣
نربوبة : ٧
نرمنديا : ٢١٦
نفارة: ٢٠٣
نهر الأردن : ٤٨
النمسا : ٢٣١
نوح : ٥٤
نور مبرج : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧
نويشتات : ٢٤٠ ، ٢٤١
نيجرو بونتو (جزيرة): ١٥٧
نيس : ٨ ، ١١١
نيقوسيا : ٥٤ ، ٥٥ ، ١٠٠ ، ١٠٣
نيقوميديا : ١٥٤
نيكولا بتشيرينو : ٢٤٦
نيكولا بتشينو : ١٣ ، ١٨٨
نيكولادى مينون : ١١٠
نيكولودى كونتى : ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٩
نيميجن : ٢٠٤ ، ٢١٩
نينودى كابريرا : ١٠٥
هانتر بيرك : ١٩٩
هانيبال : ٢٤٩
الهبدروم : ١٤٩
الهند : ٤٤ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ٩٧ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٧٤
هنرى (ملك) : ١٣٧
هولنده : ٦ ، ١٣٧
هيلانه (القديسة): ٤٥ ، ٥٠ ، ١٤٤ ، ١٤٦
هيلين (الطروادية) : ٣٨
هيلينا (القديسة) : ٢٤ ، ٢٦ ، ١٢١ ، ١٧٥
وادى الوليد : ٢٣٩
ولوس بانيجاس : ١٦٣
يافا : ٤١ ، ٥٣
اليعاقبة: ٤٤
يعقوب جيرى : ٥٦ ، ١٠١
يهوذا : ٢١ ، ٤٦
يوچين (بابا): ١٣ ، ١٧ ، ١١١ ، ١٦١ ، ١٨٣ ، ١٩٤ ، ٢٢٠ ، ٢٣٠
يوحنا المعمدان : ٤٧ ، ٤٨ ، ٢١٨ ، ٢٤٨ ،
يوحنا المعمدان (أصبع) : ٣٢
يوحنا المعمدان (رأس) : ٢٦
القديس يوحنا (فرسان) : ١٠٥
يوحنا (كنيسة القديس) : ٢٢ ، ٢٤
يوحنا اللاتيران (القديس) : ٢٥
يوديجو (قلعة) : ٤١
يوسف الصديق : ٧١
يوليوس قيصر ٢٢ ، ٢٦ ، ١٤٨ ، ٢٠٤
اليونان : ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٥٤